



حَوَليَاث كلية الآداب

تصدر عن كلية الآداب - جامعة الكويت

الرسالة الرابعة عشرة: في التاريخ

أقدام في الحلة

د. شاكرو صطفي

قسم التاريخ - جامعة الكويت



د. عبد الله يوسف الغنيم
د. نجاة عبد العتاد العتاعي

د. محمد صفى الدين أبو العز
د. فتى سواد زكريا
د. سعد عبد الرحمن
د. فهد تافيق الشاقي

مجلس
التحري

د. شوقي الفاضل
د. علي المكي
د. سعيد عاتق

نص الرسالة

الكويت ٤٠٠ فلس - البحرين نصف دينار - قطر ٥ ريالات - الامارات ٥ دراهم - السعودية ٥ ريالات - عمان نصف ريال - اليمن الجنوبي ٢٠٠ فلس - اليمن الشمالي ٣ ريالات - العراق ٤٠٠ فلس - ج.م.ع. ٢٥ قرشاً - لبنان ٥ ليرات - الاردن ٢٥٠ فلساً - سوريا ٥ ليرات - السودان ٢٥٠ مليماً - ليبيا ٤٠ قرشاً - الجزائر ٥ دنانير - تونس ٤٠٠ قليم - المغرب ٥ دراهم .

الاشتراك السنوي

للأفراد ديناران كويتيان في الكويت - ديناران وخمسة فلس في الوطن العربي - عشرون دولاراً أمريكياً في الخارج بالبريد الجوي .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية عشرة دنانير كويتية - في الخارج أربعون دولاراً أمريكياً .

لأعضاء هيئة التدريس والطلاب خصم ٥٠ % .

جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية استفسارات أخرى بشأن الجوليات توجه إلى
رئيس هيئة تحرير الجوليات - ص . ب : ٢٦٥٨٥ - الصفاء - الكويت

حَوَالِيَاتُ كَلِمَةِ الْأَدَابِ

تصدر عن كلية الآداب - جامعة الكويت

دورية علمية منتظمة تتضمن مجموعة
من الرسائل التي تعالج بأصالة
موضوعيات وقضايا ومشكلات
علمية في مجالات الأدب والفلسفة
والتاريخ والاجتماع والجغرافيا وعلم
النفس وتمثل معينا علميا للباحثين العرب.

الحَوَالِيَّةُ الثَّالِثَةُ - الرسالة الرابعة عشرة

١٩٨٢ - ١٤٠٢



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الرسالة الرابعة عشرة

أقدام في الحيلة

كتابخانه ومركز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی



مرکز: شاکر مصطفی
قسم التاريخ - جامعة الكويت

حواليات كلية الآداب - الحولية الثالثة - ١٩٨٢ - ١٤٠٢

المؤلف :

١. د. شاكِر مصطفى

- دكتوراه في التاريخ الاسلامي،
جامعة جنيف ١٩٧١.
- استاذ التاريخ الاسلامي في
جامعة الكويت.

من انتاجه العلمى :

- ٢٦ مؤلفا في الادب والتاريخ
منها:
- التاريخ العربى والمؤرخون.
- دولة بنى العباس .
- المؤرخون في العهد السلجوقي
والايوبى.
(بالفرنسية)
• ٦٢٥ بحثا ومقالة منها في
التاريخ :
- طفتكين اول الاتابكة.
- الحركات الشعبية في دمشق
بين القرنين الرابع والسادس
للهجرة.

محتوى البحث

٧ موجز
٩	١- آل قدامة الحنابلة والهجرة إلى دمشق
١٨	٢- المقادسة ونشأة الصالحية
٢٥	٣- ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية
٤٠	٤- الصالحية في العصر المملوكي
٥٢	٥- آل قدامة والصالحية المملوكية
٧٥	٦- مدارس آل قدامه ورجال الأسرة
٧٦	أولا - المدرسة العمرية
٨٥	ثانيا- المدرسة الضيائية (دار الحديث الضيائية المحمدية)
٨٨	ثالثا- المدارس الحنبلية الأخرى بالصالحية
٨٩	رابعا- شيوخ المقادسة
٩٥ نحو التلخيص والتقويم
٩٩ ملاحق البحث
١٠١	(١) الجداول
١٠١	الجدول الأول : آل الشيخ أحمد
١٠٢	الجدول الثاني: آل عبد الهادي
١٠٣	الجدول الثالث: آل عبد الواحد السعدي
١٠٤	الجدول الرابع: آل سرور
١٠٥	(٢) الخرائط

١٠٨	(٣) الصور
١١٣	مصادر البحث
١١٣	المراجع العربية
١١٦	المراجع الاجنبية
١١٨	الموجز بالانجليزية



مركز تحقيقات كميته علوم وادي

بسم الله الرحمن الرحيم

القدامة الصالحية



آل قدامة أسرة فلسطينية الأصل. دمشقية المهجر والنشاط جنبلية المذهب تركت أثرها الواضح في تاريخ الفكر الاسلامي ورجاله في العصر المملوكي سواء بكثرة من ظهر فيها من العلماء أو باستمرار نشاطها العلمي الذي امتد عدة قرون مابين أواسط السادس الهجري وحتى أوائل القرن العاشر.

قام نشاط هذه الأسرة في بقعة مجاورة لدمشق حملت اسم (الصالحية) بنى فيها آل قدامة البيوت والمدارس الأولى ولم تلبث أن أصبحت هذه البقعة بلدة صغيرة ثم بلدا واسعا للعلم والعلماء في العصر المملوكي حوى عشرات المدارس وعشرات المساجد والزوايا والخانات والتكايا وسكنه وبرز فيه كما قدم اليه المئات من العلماء بجانب ما قام فيه من النشاط الاقتصادي والاجتماعية. وكان ظهور الصالحية حدثا هاما في تطور دمشق العمراني والديمقراطي والاقتصادي بجانب شأنه العلمي.

واذا عرف التاريخ الاسلامي عددا كبيرا من الأسر العلمية فان أسرة آل قدامة تكون في طبيعتها بعدد وشهرة من أخرجت (هي الأسرة المتصلة بها) من العلماء الذين يزيدون على ١١٥ في العدد بين رجال ونساء على امتداد ثلاثة قرون ونصف القرن.

واذا عرف التاريخ الاسلامي انشاء العشرات من المدن، وقد أحصى بعض الباحثين منها ثلاثمائة مدينة في أنحاء الأرض الاسلامية، فلا يكاد يوجد بينها مدينة واحدة أقامها العلماء وتخصصت بالعلم في الدرجة الأولى سوى (الصالحية). ولم يدرس تاريخ تلك الأسرة آل قدامة بشكل متكامل، وإن حملت كتب التراجم الكثير من أخبار رجالها، ولادرس تاريخ الصالحية دراسة تكوينية حديثة وأن كتب محمد بن طولون ثديا تاريخا مواقعها ورجالها في كتاب طبع قبل ٣٣ سنة في دمشق بعنوان (القلاند) الجوهرية في تاريخ الصالحية) وكتب قبله ابن عبد الهادي كتابا ضاع فلدينا منه المختصر الذي اختصره محمد بن عيسى بن كنان باسم المروج السندية الفسيحة (أو الفيحية) في تاريخ الصالحية وقد طبع بدوره في دمشق سنة ١٩٤٧.

وهذا البحث محاولة لدراسة هذه لظاهرة الفريدة التي ارتبط فيها وتعاقد تاريخ أسرة علم مع تاريخ بلدة علم مدة تقترب من أربعة قرون، وكونا جانبا من تاريخ الفكر العربي الاسلامي في الشام خلال العصر المملوكي .

بسم الله الرحمن الرحيم

القدام في الصالحية

اعتباراً من أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) بدأت تبرز في دمشق أسرة علمية عرفت بآل قدامة أو المقادسة اتخذت سكناً لها بقعة جرداء في سفح (قاسيون) الجبل المطل على دمشق فما لبثت هذه البقعة أن صارت تجمعاً سكانياً عرف باسم الصالحية. (١)

وتنفرد الأسرة القدامية باستمرار ظهور العلماء منها عدة قرون كما تنفرد الصالحية بأنها البلد الوحيد في الاسلام الذي نشأ لاهل على أنه مركز سياسي أو اقتصادي أو عسكري (على ما نعرف من نشأة البلاد) ولكن على أنه مركز علمي. وتترابط نشأة ذلك البلد ونموه وشهرته مع نشأة تلك الأسرة ونموها وشهرتها حتى أواخر العهد المملوكي.

فمن هم آل قدامة؟ وما حكاية الصالحية معهم وحكايتهم معها؟

(١) بقيت هذه المنطقة ضاحية من ضواحي دمشق الهامة حتى مطلع هذا القرن ثم ما لبثت أن اتصلت معها بالتدريج حتى أصبحت اليوم أحد أحياء دمشق الواسعة الكثيفة السكان.

(١) آل قدامة الحنابلة والهجرة الى دمشق :

في الثلث الأخير من القرن الخامس للهجرة / الحادى عشر الميلادى تحولت القدس (ومعظم فلسطين معها) بين عدد من الأيدي الحاكمة المتباينة فقد كانت حتى شوال سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢م في أيدي الفاطميين (الشيعة السبعية) وخليفتهم المستنصر في القاهرة فاخطفها منهم مغامر تركى هو أئمز بن أوق الخوارزمى الذي مالبت أن أعلن ولاءه لبغداد العباسية (السنية) وللسلطان السلجوقى ملكشاه وأقام لهما الخطبة في القدس وجنوبي الشام. ثم مالبت أن وقعت مملكة أئمز في يد تتش بن ألب أرسلان (شقيق السلطان السلجوقى ملك شاه) الذي أقطع القدس بعد ذلك الى زعيم كبير من زعماء الترك الغز هو أرتق بك وقد توفى أرتق بك سنة ٤٨٤ / ١٠٩١م فصارت المدينة لولديه سقمان وأيلغازى ولكن الفاطميين انتهزوا فرصة وصول الصليبيين الى الشام فهاجموا القدس واحتلوها (شعبان - رمضان سنة ٤٩١) ولكنهم لم يبقوا فيها سوى أقل من سنه ريثما وصل الصليبيون من انطاكية الى فلسطين واحتلوا القدس في المذبحة المشهورة (٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ / ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٠٩٩) وصارت فلسطين (مع الساحل الشامى) بالتدريج في أيديهم .

عرفت القدس في الفترة التى أمتدت مابين عودتها الى الولاة العباسى ثم السلجوقى السنى وبين سقوطها في أيدي الصليبيين (وهى ٢٧ سنة) مرحلة من النشاط الفكرى لم تعرفها في تاريخها السابق. فقد كان لخلاصها من أيدي الفاطميين وهى ثالث الحرمين رنة فرح واسعة في المشرق الاسلامى (السنى) وفي المغرب الاسلامى (السنى أيضا) وهرع اليها العلماء من الطرفين فيما يشبه أن يكون محاولة لازالة ما قد يكون قد علق فيها من المذهب الفاطمى الذي استمر يسود فلسطين رسميا أكثر من مائة سنة .

وهكذا دبّت في القدس ومدن فلسطين الأخرى (مثل نابلس وعسقلان وعكا) دورة من النشاط العلمي الواسع. فتأسست في القدس مدارس للمذهبيين الشافعي والحنفي. وانتشرت حلقات المناظرة والدرس بين علماء المذاهب المختلفة بما في ذلك الحنابلة والكرامية والمعتزلة. وكان بعض العلماء يقصد الساحل مابين عسقلان حتى عكا وحتى طرابلس (وكان الساحل يتبع الفاطميين سياسيا وفي المذهب الرسمي) لمناظرة علماء المذهب الفاطمي في تلك البلدان، وبرز في هذه الفترة عدد من العلماء المحليين (كابن الرميلى الحافظ الذي أسره الصليبيون ثم قتلوه سنة ٤٩٢؛ وأبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠) بجانب عدد من العلماء الوافدين من العراق وخراسان (كأبي سعيد الزنجاني والامام الصاغاني والزوزني وغيرهم) والوافدين من المغرب (كأبي بكر الطرطوشي وابن العربى الاشبيلي). ولعل أعمق هؤلاء جميعا في الأثر هو أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي الحنبلي الذي ترك بغداد ومنازعاتها الدموية الحادة بين المذاهب وجاء فسكن القدس سنين طويلة ونشر فيها وفيما حولها مذهب الامام ابن حنبل بما توافد عليه من طالبي العلم ومانسب اليه من الكرامات حتى تشكلت بتأثيره كتلة حنبلية واضحة نقلت النزاع مابين الأشاعرة والحنابلة من بغداد الى فلسطين. وصار لها الاتباع من المريدين والعامّة قبل أن ينتقل الى دمشق و يتوفى فيها (سنة ٤٨٦). وكان بين الذين قدموا على الشيرازي في القدس وحملوا المذهب الحنبلي عنه شيخ قروي يدعى قدامة بن مقدم بن نصر عبد الله، جاءه مع أخيه من قرية جَمَاعِيل (٢) وسأله أن يدعوله بأن يرزقه الله حفظ القرآن. وقد ظل بنو قدامة أمة

(٢) تقع قرية جماعيل على بعد ١٦ كم من جنوب غربي نابلس وهى واحدة من مجموعة قرى تتوزع بين السفوح والوديان هناك وتقارب ثلاثين قرية منها عدا جماعيل: مرداء، زيتا، ياسوف وسلفيت... ويلفظ الاسم بفتح الجيم وتشديد الميم واللام في الآخر (راجع ياقوت ١١٣/٢) وهو اسم قديم آرامي الأصل في الغالب. ولعله - فيما أرجح - يتكون من كلمتي (جمة - ايل) الآراميتين وجمة تعنى بئر أو نبع وال هو الاله بمعنى نبع أو بئر الاله - وأهل البلاد يصحفون الاسم اليوم في اللفظ الى جماعين بالنون ويفسرونه - كما ورد لدى مصطفى مراد الدباغ في كتابه - بلادنا فلسطين (ج ٢ ص ٤٦٥) - بأنه أعطى للبلد بسبب كثرة من ظهر فيها من جامعي العلم وهو تفسير ساذج لأن الاسم أقدم بكثير من ظهور العلماء الجماعيليين وهؤلاء لم يظهروا الا بعد القرن السادس للهجرة.

من بعد يعتقدون أنهم ماوصلوا الى ماوصلوه من الخير الا ببركة هذا الدعاء (٣).

وجاء الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢ ليخنق بضربة دموية واحدة كل تلك الحركة العلمية ويسحقها سحقاً. ويكفى أن نعلم أن الفرنجة قتلوا يوم احتلال القدس وذبحوا ضمن السبعين ألفاً من القتلى ثلاثة آلاف مابين عابد وعالم ذكر وانثى ومعتكف مشهور الحالة ومذكور بالديانة وفيها قتلت «العالمة الشيرازية بقية السلسلة في جملة النساء» (٤).

وأقام الفرنجة مملكة القدس الصليبية والامارات الأخرى. واقتسموا المناطق المحتلة اقطاعات على الطريقة الغربية بين الأمراء والفرسان. وإذا كانت مذابحهم قد تناولت المدن الكبيرة فانهم أبقوا على السكان المدنيين الباقين لاستخدامهم ولم يمسوا الفلاحين المسلمين في القرى، لأنهم مورد الرزق وقد فرضوا عليهم الجزية وقيود الإقامة الاجبارية في محاولة لتحويلهم الى نوع من عبيد الأرض.

وإذا ظهرت بعض ملامح المقاومة لدى السكان، في المناطق الجبلية النابلسية على شكل عصابات «حرامية تكبس الضياع» وتنهبها أو على شكل تصيّد فردي للحجاج في المدن يحتالون عليهم في المبيت ويقتلونهم (٥) فان بقايا الجذوة العلمية كانت بدورها تبص تحت الرماد وتشكل نوعاً آخر من أنواع المقاومة للسيطرة الفرنجية وكانت تتمثل في خطباء الجوامع الذين كان بعضهم يرحل الى الشام أو الى مصر لطلب القراءة والحديث وللدراسة الدينية. وقد اشتهر محمد بن قدامة ثم ابنه أحمد وحفيده محمد أبو عمر خطباء جماعيل بالتقوى والعلم

(٣) ابن رجب الحنبلي - ذيل طبقات الحنابلة (ط. حامد الفقي - القاهرة سنة ١٩٥٢) ج ١ ص ٧١ وسوف نشير اليه فيما بعد باسم ابن رجب فقط.

(٤) ابن العربي - العواصم في القواصم (تحقيق الطالبي - الجزائر ١٩٧٤) ٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٥) انظر في هذا أسامة بن منقذ - الاعتبار (ط. فيليب حتى. برنستون ١٩٣٠) ص ١٣٨ و ١٣٩.

وقوة التأثير على الناس فكان أهل القرى الجماعيلية يهرعون الى سماع خطبهم أيام الجمع. وكانت هذه الاجتماعات مجال لقاءات دراسية لأهل تلك القرى يجرى فيها تلاوة القرآن وحفظ الحديث.. (٦).

ويبدو أن مقاومة آل قدامة الدينية للفرنجة تمثلت - بدافع من حنبلتهم - في المزيد من التمسك بالايان والورع والتقوى ولم يكن الشيخ يخفى مشاعره ضد «الكفار» المحتلين وكان يحرص الفلاحين على الانصراف للدين وترك العمل

للفرنجة في الأرض (٧) وكانت أقواله تلقى الصدى لدى أهل القرى الذين كانوا يعانون الكثير من ظلم الاقطاعيين وتعسفهم واتفق أن صاحب اقطاع «الجماعيليات» النابلسية في أواسط القرن السادس الهجري كان من الاقطاعيين العتاة وكان يتقاضى الفلاحين أربعة أضعاف الجزية التي يأخذها غيره. وكان يؤذي الناس فيها أبشع الأذى ويعاقبهم عليها بالحبس وقطع الأرجل (٨)..

والنصوص الاسلامية تسمى هذا الاقطاعى الفرنجى باليان بن بارزان (٩) ولعل في هذه التسمية خطأ .

(٦) ابن طولون - القلائد الجوهريه في تاريخ الصالحية (تحقيق دهمان - دمشق ١٩٤٩) ج ١ ص ٢٧ وسوف نشير اليه من بعد باسم القلائد.

(٧) المصدر ذاته وابن كنان - المروج الفسيحة (تحقيق دهمان - دمشق سنة ١٩٤٧) ص ٣ وسوف نشير اليه باسم: المروج.

(٨) المصدران ذاتهما.

(٩) انظر المصدر السابق نفسه وأبا شامة - الروضتين (٧٧/٢ و ٩٥) والأنس الجليل (١/٣٣٨ - ط. المحتسب - عمان ١٩٧٣) الفصح القمى (ط. صبح ص ١١٧/١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٩٧). وليس في الحكام الفرنجة المعروفين في أواسط القرن السادس الهجري/ ١٢م من يحمل مثل هذا الاسم (ابن بارزان) فأما أن يكون مجرد موظف لجميع المال غير مذكور، وأما أن يكون الرجل المعنى هو باليان شارتر صاحب بيني وأرسوف وياقا ويعرف باسم باليان الأول أو الفرنسي أو العجوز مؤسس الأسرة الاقطاعية ابلين بين التي أضحت أشهر أسرة ارستقراطية في الشرق الافرنجي وزوجته كانت صاحبة الرملة. وليس

وتنبه الفرنجي لنشاطات الشيخ أحمد وقيل له: «ان هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل ويجتمعون عنده. فتحدث في قتله (١٠)» ونما الخبر الى الشيخ عن طريق رجل تسميه المصار (ابن تسين) وكان كاتب باليان ووزيره (مساعدته) وكان يعتقد في مشايخ المسلمين ويحسن اليهم (١١). فقرر الشيخ أحمد الهرب الى دمشق حيث كان قد درس العلم على حنا بلتها بنى الشيرازي الحنبلي .

لم يكن اختياره لدمشق ناجما فقط عن أنه درس فيها وعن أنها أقرب بلد اسلامي الى بلده وعن أن العلاقات التجارية والاجتماعية كانت دوما قائمة وقوية بين نابلس ودمشق من خلال الطريق التجارى الذي يربطهما باستمرار ولكن كان ثمة سبب آخر يجتذب الشيخ أحمد الجماعيلي الى دمشق و يفتح لضيقه بالحكم الفرنجي باب الأمل هو أن هذا البلد قد انقلب بعد طول استخذاء امام الفرنجة وطول ممالأة و بعد دفعه الجزية لهم أيام معين الدين أنرثم أيام الملك مجير الدين أبق (آخر رجال الأسرة الطغتكينية) فقد وقع منذ سنة ٥٤٩/١١٥٤م بيد نور الدين بن زنكى الذي أخرج منه الملك المستخذي ووحد ما بينه وبين حلب في جبهة واحدة بينما كانت سمعته بالتقى والجهاد معا تمهد له السبيل الى الزعامة السياسية الكبرى وتجعل منه في الخواطر بطل الاسلام المنتظر وبطل التحرير.

بالثابت أن يحكم نابلس وريفها الا ان كان ملحقة باقطاع زوجته. وعلى أي حال فقد مات قبل سنة ٥٥٠/١١٥٥هـ (أي قبل هجرة آل قدامة بستين). أما صاحبة نابلس منذ سنة ٥٤٧/١١٥٢ فهي الملكة ميليسند. وأما باليان صاحب نابلس فهو باليان الثاني (الذي تدعوه المصادر الاسلامية أيضا وأنظر أبا شامه والفيح القسى - باسم باليان بن بارزان) وقد آلت اليه امارة نابلس منذ سنة ١١٦٨ أي بعد سنة ٥٦٣هـ وهو الذي شارك في حطين ثم قام بمفاوضة صلاح الدين لتسليم القدس من بعد. ويبدو بوضوح أن المصادر الاسلامية تفرج ما بين الشخصيتين كما تحسب أن الثاني هو الأول نفسه. وربما كانت شهرة الثاني وحكمه لنابلس هو الذي جعل الروايات تحسبه الاقطاعي نفسه الذي كان سببا في هجرة آل قدامة.

(١٠) القلائد ٢٧/١

(١١) المصدر نفسه ويلاحظ أن النص يخلط بين اسمى باليان وبلدوين (بغدوين).

وانظر حول دراسة الشيخ أحمد في دمشق: المروج ص ٣

ولم تكن طرق السفر آمنة بين مملكة الفرنجة ومملكة دمشق فعليها قطاع الطرق في الغور وعلى نهر الشريعة وعليها جند فرنجي يقبضون على من يهرب من الفلاحين. ولهذا مضى الشيخ أحمد مع ثلاثة من أهله (بن أخيه محمد بن أبي بكر، وابن أخته عبد الواحد بن أحمد وزوج أخته الأخرى عبد الواحد بن علي بن سرور) في رجب سنة ٥٥١هـ - آب - ايلول سنة ١١٥٦ (فوصل دمشق. ولا شك أنه اتصل بجماعة الحنابلة فيها وأنس إمكان الاستقرار هناك و يبدو أن بني الحنبلي شيوخ الحنابلة في دمشق وعدوه بالسماح له ولأهله أن ينزلوا في مسجد بظاهر دمشق يعرف بمسجد أبي صالح، وكان مع أوقافه تحت تصرفهم. فقرر الشيخ البقاء نهائيا في دمشق وكتب مع أقربائه الذين أوصلوه إلى ابنه أبي عمر محمد يطلب منه اللحاق به وأنه «ما بقي يرجع إلى تحت أيدي الكفار أبداً ويقول: ما أقول إلا كما قال إبراهيم عليه السلام فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم» (١٢)

ولم يكن بإمكان الأسرة الرحيل بحرية إلى دمشق لأنها مرتبطة بالأرض وبالجزيرة الفرنجية الجماعية على القرية. لذلك اختفى الجماعة التي رجعت إلى جماعيل عن أهل القرية والقرى المجاورة لئلا يعلموا بسفرهم.

ولكن الأمر شاع حين خرج من مجموعة قرى جماعيل وياسوف ودير عوريف والساويا ومردا وغيرها ما مجموعه خمسة وثلاثون نفساً من ذكر وأنثى وكبير وصغير (١٣) هم جمهرة آل قدامة ومعهم بعض الأدلاء (شوال سنة ٥٥١ / تشرين الثاني - كانون الأول سنة ١١٥٦).

وحاول أهل القرية منعهم فلما لم يقدرُوا أعلموا بهم الكفار حتى يمنعوهم فمضى عسكري نابلس فقعدها لهم على الشريعة حتى يأخذوهم...» (١٤)

(١٢) القلائد ج ١ ص ٢٨.

(١٣) المصدر ذاته ج ١ ص ٢٩، ٣٠ وهناك تفصيل اسمائهم...

(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨.

ولكن هذا العسكر لم يلتق بالهاريين الذين نجوا أيضا من قطاع الطريق بالصدفة ووصلوا دمشق في ثمانية أيام يقودهم أبو عمر محمد بن الشيخ أحمد. وتلقاهم الشيخ فأنزلهم في مسجد أبي صالح ..

وهذا مسجد قديم الانشاء وكان موقعه في ظاهر الباب الشرقي خارج دمشق وفيه بئر وله أوقاف. أقام فيه من قبل جماعة من الصالحين ومنهم الزاهد ابو بكر بن سند حمدويه الدمشقي ثم خلفه فيه أبو صالح مفلح بن عبدالله الحنبلي الذي توفي سنة ٥٣٠ ونسبت اليه عدد من الكرامات او المناقب كما أعطى اسمه للمسجد . (١٥)

ونزل المهاجرون من جماعيل في هذا المسجد ولم ينتسبوا أمام الدماشقة الى قريتهم ولكن الى بيت المقدس لأنها الأشهر والأقدس في أذهان الناس . وللسبب نفسه ولأن ظاهرة الانساب القبلية كانت قد اضمحلت في المجتمعات الاسلامية لم يصروا على حمل نسب آل قدامة. وتوالى ورود المهاجرين من الجماعيليات الى دمشق تباعا بعد ذلك من بقايا الأسرة القدامية وأقربائها (١٦) .. وبينما كانوا يتكاثرون في العدد، وتتعدد وتصعب في الوقت نفسه مهمة معاشهم ومقامهم، كانت مصاعب من نوع آخر تلاقيهم لتزيد في بؤس هجرتهم :

(١٥) انظر ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق. ١ (ط. المنجد/ دمشق ١٩٥٥) ج ٢ قسم ١ ص ٨١ وانظر ابن شداد الأعلام الخطيرة (ج: دمشق تحقيق الدهان ط. دمشق ١٩٩٠) ص ١٣٦ - ١٣٧ والقلائد ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧ والنعمي الدارس في تاريخ المدارس (تحقيق الحسني - ط. دمشق ١٩٩٠) ج ١ ابن عبد الهادي (ثمار المقاصد - طلس/ دمشق سنة ١٩٤٣) ص ١٠٨ .
وقد ذكر ابن طولون في القلائد أن لأبي صالح ترجمة في العبر للذهبي بين وفيات سنة ٥٣٠ وليس في المطبوع هذه الترجمة ولعلها سقطت. فهي مما يستدرك على النسخة المطبوعة (تحقيق المنجد - طبع الكويت سنة ١٩٦٣).

(١٦) يفصل صاحب القلائد الجهرية أسماء وتوالي وصول هؤلاء بعضهم بعد بعض (ج ١ ص ٣١ - ٣٣) كما يذكر موتاهم تفصيلا.

أ - المصاعب الصحية فقد كانت الظروف الصحية التي يعيشون فيها ضمن الجامع سيئة. وقد ذكروا أن الموقع «استوخم عليهم»، وهو موقع سهلي رطب على حافة الغوطة وأصابتهم فيه الأمراض. والواقع أن سوء التغذية، والبرد القاسي في شتاء دمشق والذي لم يكن يكفى لدفعه عنهم وعن صغارهم ما يجمعهم لهم أبو القاسم الصوري من صدقات الجباب والثياب (١٧)، بالإضافة إلى قلة الأعمال والموارد المعاشية بالنسبة لجماعة قروية تعودت العمل الزراعي الجبلي كل ذلك قد أسهم في تهديم المناعة الصحية للجماعة حتى مات منها في أواخر السنوات الثلاث الأولى لمقامها ثمانية وعشرون نفساً (١٨) وحتى قام بعض أفراد الأسرة فهرب ببعض أطفالها من الوباء المرضي إلى بلدة دارييا في الغوطة. وضاق صدر الشيخ أحمد، شيخ الجماعة، بهذا المكان واشتهى أن ينتقل إلى موضع غيره (١٩).

ب - المصاعب المذهبية فقد كان الغالب على أهل دمشق هو المذهب الشافعي وقد انتشر معه وخاصة منذ نزول السلاجقة بالشام (حوالي سنة ٤٦٠) المذهب الحنفي. أما المذهب الحنبلي فقد كان محدود الانتشار ومع أن الشيخ أبا الفرج الشيرازي الذي نشره في فلسطين ورد دمشق وتوفي بها ودعم انتشاره فيها إلا أن الناس لم يقبلوا عليه. وكانت رئاسة المذهب فيها لأسرته: بنى الحنبلي ولبنى المنجا. ولم يكن في دمشق سوى مدرسة حنبلية واحدة قاسى آل الحنبلي الكثير في بنائها (٢٠) بسبب مقاومة الشوافع لهم.. وهكذا كان من الصعب أن يُقبل هؤلاء المقداسة في دمشق إلا أن يغطي تقاهم وعلاقتهم الطيبة مع كبارها على حنبليتهم ..

(١٧) القلائد ج ١ ص ٣٦.

(١٨) القلائد ج ١ ص ٣٤ و ص ٣٧.

(١٩) المصدر نفسه ص ٣٧. والمروج ص ٥.

(٢٠) الدارس ج ٢ ص ٦٥.

وقد كان ذلك. ونجح المقداسة في الأمرين: فقد اجتذبوا الناس بالتقى والتدين الى مسجدهم فكانوا يزورنهم لتلاوة القرآن وقراءة السبع (الذي كان أهل بالمسجد) وسماع دروس الدين. وبلغ من حسن شهرتهم أن زارهم في مسجد أبي صالح الشيخ ابو سعد عبدالله ابن أبي عصرون، قاضي القضاة لدى نور الدين (المتوفى سنة ٥٨٥ / ١١٨٩) وكبير فقهاء الشافعية في عصره والذي بنى له نور الدين كما بنى هو نفسه عددا من المدارس باسمه في حلب وحماه وحمص وبعلمك ودمشق (٢١)

وخاف بنو الحنبلي على وقفهم أن يأخذه هؤلاء الوافدون وجاعوا ويقولون لهم: «ما نخليكم في المسجد حتى تكتبوا خطوطكم أنكم من تحت أيدينا وأنكم نزلتم علينا ففعلوا. (٢٢)

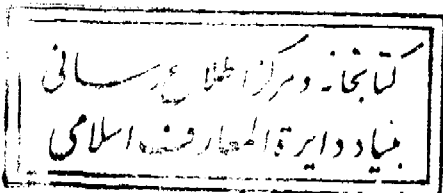
ورأى شيوخ المقداسة أن من المجاملة الطيبة أن يردوا الزيارة لابن أبي عصرون فمشى اثنان منهم (أبو محمد الموفق وأخوه الحافظ عبدالغنى) وحفظوا عليه مسألة من مسائل الخلاف في الفقه. وإذا كانت هذه الخطوة قد سرت القاضي فقد اثارت ثائرة آل الحنبلي فراحوا يشنعون عليهم بأنهم أصبحوا أشاعرة. وإذا علمنا مبلغ الخصومة الحنبيلة الأشعرية في بغداد وأن الحنابلة يكفرون الأشعرية عرفنا خطر التهمة التي تعرض لها الشيخان المقدسيان اللذان انقطعا لذلك عن درس ابن أبي عصرون حتى افتقدهما....

وأراد آل الحنبلي استغلال الفرصة لخراج الجماعة من المسجد بحجة

(٢١) تراجم ابن أبي عصرون مبذولة في كتب التراجم (وانظر مثلا شذرات الذهب لابن الحنبلي ج ٤

ص ٢٨٣) وقد عاش ٩٣ أو ٩٥ سنة.

(٢٢) القلائد ص ٣٦.



أنهم صاروا أشاعرة شافعية والمسجد وقف للحنابلة واستعدوا عليهم السلطات ولكن شهادة ابن أبي عصرون وبعض رجال الحاشية لدى نور الدين بتقوى هذه الجماعة كانت كافية لكي يكتب نور الدين للمقادة كتابا رسميا بتحويل الوقف اليهم .. وجاء ابن أبي عصرون اليهم يحمل بنفسه الكتاب ويسلم المسجد والوقف ..

وفرغ المقادة الا الشيخ أحمد كبيرهم الذي ضاق صدره وقال : أنا هاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم ؟ مابقيت أريد أن أسكن ها هنا !! (٢٣) وزاد في ضيقه — على ما يبدو — تشنيع بني الحنبلي عليه وخوفه من تشويه صورته الدينية لدى الناس وهي رأسماله .

(جـ) مصاعب الجوارفان الجانب الشرقى من دمشق كله (وهو المجاور لمسجد أبي صالح) كان للنصارى يسكنونه منذ ما قبل الفتح (ولا يزالون الى اليوم) كما كان حى اليهود (ولا يزال) الى الجنوب منهم «وكان أهل الباب الشرقى يخرجون الى ظاهر الباب (في البساتين) ويشربون الخمر» ويحاول المقادة أن ينكروا عليهم ذلك فصار أهل الباب يكرهونهم ويحرضون عليهم الصبيان لضربهم بالحجارة ويثيرون لهم المتاعب .. ويجعلون اقامتهم مملوءة بالضيق .. (٢٣) .

وهكذا تبلورت في خاطر الشيخ أحمد كبير المقادة آل قدامة أن يغير المنزل ولكن الى أين ؟

٢ — المقادة ونشأة الصاحبة :

كانت دمشق منذ صارت في يد نور الدين بن زنكى سنة ٥٤٩ هـ ، قد

أنهم صاروا أشاعرة شافعية والمسجد وقف للحنابلة واستعدوا عليهم السلطات ولكن شهادة ابن أبي عصرون وبعض رجال الحاشية لدى نور الدين بتقوى هذه الجماعة كانت كافية لكي يكتب نور الدين للمقادة كتابا رسميا بتحويل الوقف اليهم .. وجاء ابن أبي عصرون اليهم يحمل بنفسه الكتاب ويسلم المسجد والوقف ..

وفرغ المقادة الا الشيخ أحمد كبيرهم الذي ضاق صدره وقال : أنا هاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم ؟ مابقيت أريد أن أسكن ها هنا !! (٢٣) وزاد في ضيقه — على ما يبدو — تشنيع بني الحنبلي عليه وخوفه من تشويه صورته الدينية لدى الناس وهي رأسماله .

(جـ) مصاعب الجوارفان الجانب الشرقي من دمشق كله (وهو المجاور لمسجد أبي صالح) كان للنصارى يسكنونه منذ ما قبل الفتح (ولا يزالون الى اليوم) كما كان حى اليهود (ولا يزال) الى الجنوب منهم «وكان أهل الباب الشرقي يخرجون الى ظاهر الباب (في البساتين) ويشربون الخمر» ويحاول المقادة أن ينكروا عليهم ذلك فصار أهل الباب يكرهونهم ويحرضون عليهم الصبيان لضربهم بالحجارة ويثيرون لهم المتاعب .. ويجعلون اقامتهم مملوءة بالضيق .. (٢٣) .

وهكذا تبلورت في خاطر الشيخ أحمد كبير المقادة آل قدامة أن يغير المنزل ولكن الى أين ؟

٢ — المقادة ونشأة الصاحبة :

كانت دمشق منذ صارت في يد نور الدين بن زنكى سنة ٥٤٩ هـ ، قد

أضحت العاصمة السياسية والعسكرية للقوى الإسلامية في الشرق الاسلامى ونجم عن ذلك وعن سمعة نور الدين في التقوى والجهاد أنها أخذت تجتذب الجنود والمتطوعة اجتذابها للعلماء والفقهاء. وتحركت الدورة الاقتصادية فيها ونشطت الحركة العلمية مع النمو الديموغرافى وظهرت في أطرافها خارج السور في الشمال والجنوب الغربى طلائع أحياء سكنية هامة .

لذلك كان من الصعب أن يفكر المقداسة بالاستقرار في المناطق الملاصقة لدمشق، أو في غوطتها لأن أراضيها مملوكة لأهل دمشق ولا يملك المقداسة، مع فقرهم، أثمانها، وطاف أبو عمر ابن الشيخ أحمد وصهره في سواد (الغوطة) يبصران موضعا (مناسبا) ولعلهما كانا يبحثان عن أرض تعيش عليها هذه الجماعة القروية الزراعية. وأبعدا في الطلب حتى أطراف حوران حيث دهمت أحدهما غارة فرنجية فهرب الى أرض اللجاة من الخوف (٢٤) .. ثم عاد الاثنان مخفقين .. وأخيرا أتجهت انظار المقداسة، مرغمين على ما يظهر، الى سفح قاسيون المطل على دمشق من الشمال، على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا من أسوارها ..

وهذا السفح أرض واسعة منحدرية يمر نهر يزيد (أحد فروع بردى) عند ذيولها الأخيرة تاركا البساتين والخضرة الى الجنوب والأرض القاحلة على سفح الجبل الصاعد حتى القمة. ولم تكن هذه الأرض زراعية وان كان بعض أهل البساتين المجاورة يزرعون على ماء المطر بعض جوانبها بالحبوب. ولكنها كانت أرضا خلاء يقبر فيها بعض الفقراء موتاهم لأنهم لا يملكون ثمن القبور في المقابر المطيقة بدمشق .

وكان أهل دمشق الى ذلك ينسبون الى هذا السفح بعض البركة

والقدسية لأن فيه عددا من الكهوف والمغائر أحيطت مع الأيام ببعض الفضائل الخرافية والأساطير فهذه مغارة الجوع (الجوعية) وتلك مغارة الدم، (دم هابيل) وهناك كهف جبريل (حيث تلقى آدم العزاء منه بابنه هابيل)، وهناك (بيت أبيات) حيث سكن آدم أبو البشر. وفي أعلى السفوح مغارة الأربعين (وفيها دفن أربعون نبيا) الخ (٢٥) وقد اقيمت في هذه المواقع وعلى الدروب الصاعدة إليها بعض المساجد الصغيرة ويزيد عددها على ثمانية لكن المنطقة رغم «بركاتها» كانت في تلك الفترة من أواسط القرن السادس الهجري من الأرض القفر لا يزورها عدا العابرين إلا بعض الوحش (كالضباع والذئاب) وبعض اللصوص الذين يقدمون إليها من وادي التيم عبر الجبال لتخطف بعض العابرين والمتفردين وبيعهم عبيدا في بلاد الفرنجة (٢٦).

أما على الأطراف الدنيا من السفوح جنوبى نهر يزيد فكانت تمتد القرى والبساتين الشمالية لغوطة دمشق والجنان النضرة يخترقها نهر ثورا موازيا ليزيد وعلى مسافة قليلة منه. ففى أقصى الغرب كان ثمة الربوة ويليها نحو الشرق دير مران الذي ظل منزل الحكام العباسيين والفاطميين زمنا طويلا قبل أن يهجر. وتليه قرية النيرب المغمورة بالخضرة وفيها البيوت والجواسق حيث استشهد في الحملة الصليبية الثانية سنة ٤٥٣ بعض الشيوخ المدافعين عن دمشق فما تزال قبورهم ماثلة (أبو الحجاج يوسف بن درباس الفندلاوى وعبدالرحمن الحلحول).

ومثلها قرية أرزة (وهى منطقة الشهداء اليوم) ثم تأتي قرية بيت أبيات (وهى منطقة طاحون الأشنان القديمة) ضمن البساتين وتنتهى السلسلة بقرية مقرى (منطقة الحلالات والميسات الى عهد قريب) وقرية الميطور (أسفل المدرسة الركنية بحى ركن الدين اليوم) ..

(٢٥) أنظر في ذلك ما ورد في: كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات للهوى وفضائل الشام للربيعي، ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري وفي القلائد، وفي المروج السندية وتاريخ ابن عساكر وغيرها وفي كتب فضائل الشام.

(٢٦) القلائد ج ١ ص ٣٩ و ٣٨ والمروج ص ١٠.

وعلى امتداد الضفة الشمالية من نهر يزيد فيما بين السفوح الجرداء وسلسلة القرى والبساتين كان يمتد شريط من الأرض القليلة الميل تسائر النهر وتعرض هنا أو تضيق هناك تاركة المجال لبعض الحياة النباتية والمسكن. ثممة بعض الرقاع الزراعية البعلية وثمة، في تلك الآونة، بعض الأبنية المتفردة يحمل بعضها اسم «الأديرة» لأنها كانت من قبل معتكفا لبعض الرهبان: ففي الغرب: دير يعرف بدير الحوراني وكان يسكنه أبو العباس أحمد الكهفي والشيخ عمارة وجماعة صغيرة. وكانت أرض الجبل في أيديهم يزرعونها ويقولون إنها للكهف. ثم إلى الشرق منه دار لبنت الفيلال يسكنها جماعة. ودار للفقية طرخان. وتنتشر هنا وهناك عدد من المساجد الصغيرة يقارب العشرة بعضها قديم وبعض مابنى في هذه الفترة نفسها فوق القبور أو لبعض الزهاد (٢٧).

ومن الناحية الشرقية كان هناك دير لبعض الرهبان «واتفق أن أحدثوا شيئاً فأخرجوا منه» فسكنه (حوالي سنة ٥١٥ - ٥٢٥) أولاد معبد بن مستفاد وأخوته وأقاربهم وهم من الحنابلة. طلبه لهم الامام عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبلي وكان يزورهم فيه فعرف الدير «بدير الحنابلة». ويبدو أن بنى المستفاد هجروه إلى المدينة بعد ذلك فسكنه الشيخ ابن عمر عبد الرحمن المقابري وأناس قليلون معه.

وكان ثممة مصلى (موقعه مكان جامع الحنابلة اليوم) ومسجد عتيق على نهر يزيد (قبلى جامع الشيخ محي الدين اليوم (٢٨)) ولكن الموقع كان ما يزال في

(٢٧) مجموع المساجد التي كانت في المنطقة سواء على السفح أو بين البساتين أو على الشريط النهري يقارب ٢٥ مسجداً صغيراً. ونجد التفاصيل عنها لدى ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق ج ٢ قسم ١ تحقيق النجد) ص ٨٥ - ٨٩ وقائمه هامة فهو معاصر لهذه الفترة. وتتنوع حصة منها بين البساتين والقرى وثمانية في السفح أو على الدروب إليه والباقي حول الشريط النهري. وقد نقل ابن شداد في الإغلاق الخطرة (قسم دمشق ص ١٤٧ وما بعدها) قائمة ابن عساكر ثم أضاف إليها. وانظر من أجل التفاصيل الأخرى في هذه الفقرة: القلائد ١ ص ٣٨ و ٣٩.

(٢٨) القلائد ج ١ ص ٣٨ - ٤٢ وتجد هناك بعض التفاصيل الأخرى المتفرقة كما نجد ذلك في المروج ص ٨ - ١٠.

تصرف بنى المستفاد. ولم تكن الجماعة المقدسية تجهل سفح قاسيون وما فيه من مواقع التبرك. فقد زارته جماعات منهم ٢٢ مرة على الأقل حين دفنوا فيه ٢٢ من موتاهم الثمانية والعشرين. وكانوا على صداقة مع آل المستفاد ويعرفون من خلاهم قصة دير الحنابلة هناك. كما كان لأحد المقادسة (عبدالرحمن بن أبي عبدالرحمن) «جنينة» فوق نهر يزيد عند الدير الشرقي وقد مات فيها هو وابنه الصغير (٢٩) ولكن الجماعة لم تكن تفكر في ذلك الموضع لأنه ليس مجال الزراعة والرزق لهذه الجماعة القروية. على أن ضغط الظروف أجبرها على القبول به.. وأجبرها بالتالي ونتيجة لذلك على تغيير موارد عيشها وطرائق انتاجها من الزراعة وهى براعاتها الأولى الى العلم وهو مجالها الثاني الاضافى .

ولقد كان الفقيه طرخان يرغبهم في الموقع وآل الحنبلى يغرونهم به (٣٠) كما كان آل المستفاد يدعونهم الى ذلك. وكان أبو عبد الخالق عبد الواحد بن معبد بن مستفاد يخرج مع الجماعة القادمة الى سفح قاسيون لمعاونتهم في دفن موتاهم فلما رأى ضيق صدر الشيخ أحمد بموقعه في مسجد أبى صالح اقترح عليه أن ينظر في موضع دير الحنابلة فان أعجبه بنى فيه.. وخرج الشيخ فصلى هناك في المصلى العتيق وقال : ما هذا إلا موضع مبارك (٣١) وتقرر بذلك انتقال الجماعة المقدسية الى سفح قاسيون. والى الموقع الذي يقوم فيه جامع الحنابلة اليوم وكان هذا يعنى في الوقت نفسه اختيار طريق العلم مورداً للعيش وهجر الزراعة نهائياً. وهكذا قدر لذلك الشريط من الارض الجبلية الموازى لنهر يزيد والمقطع تارة بمجاري السيول وتارة ببعض المزروعات البعلية والذي تنتشر فيه بعض المساجد المتفرقة والدور المتفردة، أن تقوم عليه بلدة علم: الصالحية .

ولم يكن لدى المقادسة لا المال الكافى ولا القوة على البناء ولا الخبرة به

(٢٩) القلائد ج ١ ص ٣٥.

(٣٠) القلائد ج ١ ص ٣٨ - ٣٩ وص ٢٥.

(٣١) القلائد ج ١ ص ٣٧.

فكانوا يكترون من يعملون عليه . وقد عاونهم أبو عمر المقابري وأهله فيه . فبنوا في السنة الأولى ثلاثة أبيات فقط وكانوا يقولون يكفيننا بيت واحد . لكثرة الموت فيهم .

كانت الأبيات الثلاثة للشيخ أحمد وابنه أبي عمر وصهره محمد . وكان الخبز يحمل للعاملين في البناء من المدينة . ثم اضطروا أن ينقلوا امرأة الشيخ الى الجبل لتقوم باطعامهم .. وفي جمادى الآخرة سنة ٥٥٤ (مارس - حزيران سنة ١١٥٩) أى بعد ثلاث سنوات ونيف من المقام بمسجد أبي صالح انتقلت أولى الجماعات المقدسية الى سفح قاسيون . في السنة التالية صارت البيوت عشرة (٣١) متلاصقة ولكن سكانها كانوا على الرعب الدائم فلم يكن لمجموعة البيوت باب ، كباب دير الحوراني الحجري يحمي الجماعة وأولادها من الوحش ومن اللصوص وبخاصة «حرامية وادى التيم وكانت لهم شوكة ومنعة»! فأقاموا للبيوت بابا موحدا يغلق عليها .. ودعا الناس هذه المجموعة السكنية الجديدة بدير الحنابلة! على الاسم القديم! لكن جماعة المقداسة حملت معها اسم مسجد أبي صالح الذي كانت تنزله فكان الناس يدعونهم بالصالحية . «نسبة الى صاحب ذلك المسجد لاعلى أنهم صالحون» (٣٢) لكن هذا اللقب الثالث الذي حملته الجماعة بعد «الجماعيلي» «والمقدسي» مالبث أن انسحب على البقعة التي نزلوها في سفح قاسيون لأنهم ظلوا يفضلون نسبة المقداسة مع أسمائهم ..

وبالرغم من أن بعض السكان السابقين في السفح (كأبي العباس الكهفي) قد خافوا أن تتكاثر الجماعة وتتملك المواضع هناك وتسلبهم الأراضى التي يزرعون الا أنهم سرعان ما اطمأنوا حين تبينوا أن هدف الجماعة لم يكن في الأرض والزراعة ولكن في العمل بالقلم .. فقد تكاثرت الدور بالتدريج من حولهم وتكاثر عليهم الزوار والطلاب والهدايا . وبدأت الاوقاف تحبس على «دير الحنابلة» وتزداد حتى كان منها ، فيما بعد ، قرية الهامة والاضاحي التي تقدمها

(٣١) في القلائد ج ١ ص ٣٧ - ٣٩ بعض التفاصيل الأخرى .

(٣٢) القلائد ج ١ ص ٢٥ و ٢٦ .

قرية ست زينة كل سنة.

يقول الحافظ ضياء الدين نقلا عن والدته: «انتقلنا الى الجبل وكأن الناس لم يكونوا يعرفون والدي (الشيخ أحمد) الا بعد خروجه الى الجبل فكان الناس يأتونه ويزورونه ويهدون اليه. وكان السلطان نور الدين يأتي الى زيارته وما كنا نعرف شراء الفاكهة والبطيخ والفحم من كثرة ما كان يهدي الينا...» (٣٣).

وتبرع رجل يسمى أبا الخزم بن صعلوك العسقلاني فبنى للشيخ أحمد مسجداً اتخذه الشيخ مدرسة ايضاً وهو ما عرف بالمدرسة الصغيرة أو مدرسة ناصر الدين فيما بعد (غربي المدرسة العمرية وجنوبي الدين) وكان يزوره فيها نور الدين محمود بن زنكي» و ينتفع به «وقد أرسل ذات مرة مرة نجاره فأصلح خشبة في سقف المسجد. ويبدو أنه، بعد وفاة الشيخ، أعاد بناء المدرسة الاولى الذي لم يكن على ما يظهر متيناً وأضاف اليه المصنع الذي صار يعرف ببئر الشيخ، كما أضاف فرناً للخبز. (٣٤).

(٣٣) القلائد ج ١ ص ٣٨ والنص في الكتاب فيه خطأ اذ يقول الحافظ ضياء الدين سمعت والدي يقول.. (ووالده هو عبد الواحد) والمتحدث هو والدته ابنة الشيخ أحمد. أما أوقاف الدير فذكرها ابن طولون في القلائد ١/١٦٨

(٣٤) هناك نصان معاصران ومتعارضان بصدد هذا البناء:

الأول لابن عساكر كتبه قبل موت الشيخ أحمد سنة ٥٥٨ يقول: «...وجامع بناء أبو الخزم بن صعلوك العسقلاني لأحمد الجماعلي» (تاريخ مدينة دمشق ج ٢ رقم ١ تحقيق المنجد ص ٨٩).
الثاني لسبط ابن الجوزي (في مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ - ط. حيدرآباد ص ٣١٤) يحكي كلام أبي عمر ابن الشيخ أحمد يقول فيه: «كان نور الدين يزور والدي في المدرسة الصغيرة المجاورة للدير ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن فجاء مرة وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة...»

ولما كان نص ابن عساكر دقيقاً حاسماً فقد رجح لدينا أن يكون البناء الأولي للمسجد على يد العسقلاني وأن يكون نور الدين قد أعاد بناء المدرسة وبنى المصنع والفرن بعد وفاة الشيخ أحمد تكريماً له ولكي يتابع ابنه أبو عمر فيها عمله التدريسي الذي استمر (قبل وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩) حوالي ٢٥ سنة إلى أن جرى بناء المدرسة العمرية الواسعة وجرى الانتقال إليها.

وعلى أى حال فاذا بدأ منذ سنة ٥٥٤ / ١١٥٩ تاريخ جديد لآل قدامة
وللبقعة التي نزلوها من قاسيون وللمذهب الحنبلى في الشام فقد انتهت مرحلة
التأسيس الأولى هذه لأبجد آل قدامة ولحي الصالحية الذى أسسوه بموت الشيخ
أحمد سنة ٥٥٨ / ١١٦٢ رأس الأسرة المهاجرة وله سبع وستون سنة .

٣ - ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية :

بدأت بعد موت الشيخ أحمد المرحلة الثانية في تاريخ الأسرة وتاريخ
المنزل الذي نزل من سفح قاسيون. وهى مرحلة تراقق فيا توسع الحى وازدهاره مع
بروز الأسرة واشتهار رجالها. وكان كل من الطرفين يمنح الآخر تألقه ويكسب
في الوقت نفسه من نشاطه في عملية تبادل دورى متنامية .

وكما أن عوامل كثيرة ساعدت على توسع وتطور الصالحية، كذلك فإن
هجرة متصلة من العناصر القروية الجماعيلية والمقدسية والنبلسية ظلت ترفد
الجماعة القدامية الأولى وتزيد في عددها ونشاطها. وإذا كان بعض هذه العناصر
يأتى من فلسطين للدراسة والعودة فإن معظمها كان يأتى للاستقرار. حتى بعد أن
تحررت فلسطين على يد صلاح الدين لم يرجع المهاجرون المقدسة إليها بل ظلت
حركة الهجرة بالعكس متجهة من فلسطين الى الصالحية، يحفزها الى ذلك
ما وجدته الجماعة المقدسية من النجاح ومن الاحترام العميق ومن مورد العيش
المأمون .

ويجب أن نسجل مقابل هذا ملاحظة أخرى هى أنه ليس في تاريخ
الهجرات الى الشام هجرة استطاعت أن تتميز وأن تنشئ بلداً لها يحمل اسمها
وأن تفرض في هذا البلد خطها الحياتي كما فعل المقدسة . فقد هاجر الى دمشق
الاكرد (أيام صلاح الدين وشكلوا حى الاكرد) وهاجر في العصر الحديث
الشركس (في مطلع هذا القرن) والجزائريون (مع الامير عبدالقادر) والارمن (هربا
من المذابح التركية أواخر القرن الماضى ومن بعده) وأهل كريت (ونزلوا حى

وعلى أى حال فاذا بدأ منذ سنة ٥٥٤ / ١١٥٩ تاريخ جديد لآل قدامة
وللبقعة التي نزلوها من قاسيون وللمذهب الحنبلى في الشام فقد انتهت مرحلة
التأسيس الأولى هذه لأبجد آل قدامة ولحي الصالحية الذى أسسوه بموت الشيخ
أحمد سنة ٥٥٨ / ١١٦٢ رأس الأسرة المهاجرة وله سبع وستون سنة .

٣ - ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية :

بدأت بعد موت الشيخ أحمد المرحلة الثانية في تاريخ الأسرة وتاريخ
المنزل الذي نزل من سفح قاسيون. وهى مرحلة تفاقفيا توسع الحى وازدهاره مع
بروز الأسرة واشتهار رجالها. وكان كل من الطرفين يمنح الآخر تألقه ويكسب
في الوقت نفسه من نشاطه في عملية تبادل دورى متنامية .

وكما أن عوامل كثيرة ساعدت على توسع وتطور الصالحية، كذلك فإن
هجرة متصلة من العناصر القروية الجماعيلية والمقدسية والنبلسية ظلت ترفد
الجماعة القدامية الأولى وتزيد في عددها ونشاطها. وإذا كان بعض هذه العناصر
يأتى من فلسطين للدراسة والعودة فإن معظمها كان يأتى للاستقرار. حتى بعد أن
تحررت فلسطين على يد صلاح الدين لم يرجع المهاجرون المقدسة إليها بل ظلت
حركة الهجرة بالعكس متجهة من فلسطين الى الصالحية، يحفزها الى ذلك
ما وجدته الجماعة المقدسية من النجاح ومن الاحترام العميق ومن مورد العيش
المأمون .

ويجب أن نسجل مقابل هذا ملاحظة أخرى هى أنه ليس في تاريخ
الهجرات الى الشام هجرة استطاعت أن تتميز وأن تنشئ بلداً لها يحمل اسمها
وأن تفرض في هذا البلد خطها الحياتي كما فعل المقدسة . فقد هاجر الى دمشق
الاكرد (أيام صلاح الدين وشكلوا حى الاكرد) وهاجر في العصر الحديث
الشركس (في مطلع هذا القرن) والجزائريون (مع الامير عبدالقادر) والارمن (هربا
من المذابح التركية أواخر القرن الماضي ومن بعده) وأهل كريت (ونزلوا حى

المهاجرين الذي سمي باسمهم آخر القرن الماضي) وهاجر الليبيون والحجازيون.. واندجحت هذه الهجرات في البوتقة الدمشقية (كما انصهر المقداسة أيضا) ولكن دون أن تترك أى أثر واضح في التاريخ العمرانى أو الاقتصادي أو الفكرى لدمشق كما ترك المقداسة .

كان محور الحركة بالنسبة للأسرة القدامية: أبا عمر محمد بن الشيخ أحمد وهو الذي رسم للجماعة المقدسية خطها العلمى فما برحت تسير عليه عدة قرون. ولد في جماعيل سنة ٥٢٨ هـ وهاجر مع والده الى دمشق سنة ٥٥١ هـ وحفظ القرآن وأخذ الحديث عن شيوخ دمشق ثم مصر وقرأ النحو هناك على ابن برى وجمع الى معرفة الفقه والفرائض والنحو، الزهد والعمل والطبقة. يقول أخوه الموفق عنه «كان شيخنا. ربانا وأحسن الينا.. وهو الذي هاجر بنا وسفرنا الى بغداد.. وبنى الدير.. ثم زوجنا وبنى لنا الدور. وكفانا هموم الدنيا..» ولقد ظل رأس الجماعة نصف قرن حتى توفى سنة ٦٠٧/١٢١٠ وقدم بعلمه وسلوكه وتقاه وكثرة صيامه وعبادته واشتراكه في الجهاد مع صلاح الدين (و يوم فتح القدس) المثل الذي احتذاه رجال الاسرة من بعد كما كان النموذج المرتضى من الرجال في ذلك العصر حتى لقد نسبت اليه الكرامات العديدة (٣٥) واعتبره بعضهم «قطب الوقت» في السنوات الأخيرة من حياته وحين توفى خرج في جنازته عشرون الف مشيع فيهم كل كبار القوم ولولا بعض قواد الجند يحرسونه بالسيوف والدبابيس ما وصل قبره شيء من أكفانه التي كان الناس يقتطعون منها للبركة.. ولعل أهم أعماله أنه أعطى الجماعة المقدسية مؤسسة علمية حنبلية تمحورت حولها نشاطات رجال الأسرة كما اجتذبت اليها المريدين والطلاب فقد أنشأ بجانب مدرسة أبيه الى الشرق على نهر يزيد مدرسة ماتزال اطلالها الى اليوم تحمل اسمه هي المدرسة العمرية.

(٣٥) أنظر هذا كله مع ترجمته لدى ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ٥٧/٢ — ٦١ فهناك روايات كثيرة عنه وقد ذكر ذلك قبله سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٤٧ — ٥٥١ والاثنان أخذاعما ذكره الضياء المقدسى في سيرته.

كان ضغط الطلاب وتكاثرهم على المدرسة القديمة هو الذي دفع ابا عمر الى بناء المدرسة العمرية ويبدو أن ذلك كان فيما بين سنة ٥٨٠/٥٩٠ وأن بعض أهل الدين قد أعانه على البناء، «وكان مكان المدرسة مقصبة» ونقيق ضفادع فشرع أبو عمر في عمل «مصنع» المدرسة (أى البئر جنوبى النهر) ثم عقد النهر (أى غطاه) وبنى المسجد وبنى عشر خلاوى للفقراء عقدا. وكانت المدرسة الى طرف الايوانين القبلى والشمالى.. (٣٦). بعد ذلك بسنوات، أى في سنة ٥٩٨ بدأ أبو عمر مشروعه البنائى الثانى: جامع الحنابلة (المظفرى) الذي كرس تحول الصالحية الى بلد ذى «منبر».

وقد وقف أبو عمر مدرسته على اقراء القرآن وعلى الفقه. «فتعلم بها القرآن قوم لا يحصون» واستطالت سمعتها بسمعة صاحبها كما استطالت شهرة أبى عمر نفسه بشهرة جماعة أخرى من العلماء أخرجتها الأسرة في تلك الفترة.

وقد أتم أبو عمر عمله العلمى الدينى بأن حول الجيل الناشئ كله في أسرته، وفي الأسر التي هاجرت معها من قراها الأولى، الى جيل من العلماء ومن طلبية العلم ومالبيث هذا الجيل أن أبرز عددا من كبار العلماء جاءوا ليؤكدوا سمعة وقوة المؤسسة الحنبلية الناشئة على جبل قاسيون، وليجروا في الوقت نفسه الأجيال التالية من الأسرة الى الخط الانتاجى - المعاشى نفسه: خط العلم. وهكذا بينما كانت المدرسة تقوى وتكبر كانت الأسرة القدامية مع أقربائها الملتصقين بها تقدم خمسة أو سبعة رجال لفتوا الانظار العلمية لا في الشام فحسب ولكن في بغداد وخراسان وفي مصر.

واذا تركنا جانبا منهم أمثال : عماد الدين ابراهيم (المتوفى سنة ٦١٤) وشمس الدين أحمد البخارى (المتوفى ٦٢٣) وبهاء الدين عبدالرحمن (المتوفى ٦٢٤) وجدنا أن ثلاثة منهم على الاقل صاروا أقطاب الفكر الحنبلى على العصور:

(١) تقى الدين عبدالغنى بن عبدالواحد بن على بن سرور (ابن خالة أبى عمر) (ولد بجما عيل سنة ٥٤١ هـ وتوفى سنة ٦٠٠/١٣٠٣) الذى أضحى من كبار الحفاظ ورواة الحديث وقد سموه (حافظ الوقت ومحدثه). ترك من المؤلفات خمسة وأربعين كتاباً بعضها في عشرين مجلداً (مثل نهاية المراد من كلام خير العباد) وبعضها في عشرة (الكمال في معرفة الرجال) (٣٧).

(٢) موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامه (شقيق أبى عمر) (ولد بجما عيل سنة ٥٤١ هـ وتوفى بقاسيون سنة ٦٢٠/١٣٢٣) وهو شيخ الفقه الحنبلى بكتابة (المغنى) ذى المجلدات العشرة. منحه الناس لقب «شيخ الاسلام» و«امام الأئمة» ونسبوا اليه بدوره الكرامات بل المشى على الماء! ومؤلفاته تقارب الثلاثين (٣٨).

(٣) ضياء الدين محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن عبدالرحمن السعدى (ابن شقيقة أبى عمر) (ولد بدمشق سنة ٥٦٩ هـ وتوفى بها سنة ٦٤٣ هـ) وهو الحافظ الذى اعتبره بعضهم «من العلماء الربانيين» في الثقة والورع والزهد حتى سماه الذهبي «محدث الشام وشيخ السنة» (٣٩).

وقد ترك ما يزيد على عشرين مؤلفاً، وأنشأ على باب دير الحنابلة من الشرق، ونتيجة لتزايد ضغط الطلبة (دار حديث) للغرباء الوافدين أعانه

(٣٧) انظر سيرته المطولة في ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ج ٢ — ص ٥ — ٣٤. وله تراجم كثيرة متعددة في مختلف المصادر منها اليافي — مرآة الجنان (حيدرآباد سنة ١٣١٨) ج ٣ ص ٤٩٩ — ٥٠٠ ابن الحنبلي شذرات ٣٤٥/٤ — ٣٤٦، ابن كشيصة البداية والنهاية ٣٨/١٣ — ٣٩ ابن تقي بريدي — النجوم الزاهرة ١٨٥/٦ — ١٨٦.

(٣٨) انظر ايضاً ترجمته المطولة في ابن رجب ج ٢ ص ١٣٣ — ١٤٩، ولدى أبى شامة — ذيل الروضتين ١٣٩ — ١٤٢ وابن كشيصة البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٩ — ١٠٠ وابن العماد الحنبلي شذرات ٨٨/٥ — ٩٢، ابن شاكر — فوات الوفيات ٢٠٣/١ — ٢٠٤ واليافي — مرآة ج ٤ ص ٤٧ — ٤٨.

(٣٩) انظر ترجمته كذلك في ابن رجب ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٤٠ والذهبي — تذكرة الحفاظ ١٩٠/٤ — ١٩٢ وابن شاكر الكتبي فوات الوفيات ٢٣٨/٢ وابن كثير — البداية ١٦٩/١٣ — ١٧٠ والصفدي — الوافي ٦٥/٤ — ٦٦.

عليها بعض أهل الخير وأنشأ فيها مكتبة واسعة وقف عليها كتبه. وقد اكملت هذه المدرسة مهمة المدرسة العمرية التي اهتمت بقراءة القرآن والفقه كما دعمت مركز المقادسة العلمى والدينى وأفاضت في شهرتهم وشأنهم.. ولا شك أن آل قدامة إذا كانوا قد أعطوا هذا المركز العلمى الذى أقاموه في قاسيون الكثير من جهودهم الفكرية فإن مآلقوه من التشجيع الكبير ومن الاحترام ومن التكريم والعون المادى على مختلف المستويات كل ذلك قد دفعهم بالمقابل الى المزيد من العمل والانتاج في الميدان الذى اختاروه .

وهكذا بينما كانت سمعة آل قدامة في التقى تزداد وشهرة مدرستهم وحلقاتهم في العلم تنتشر وتلاميذهم في القرآن والحديث والفقه يتكاثرون بالآلاف، كانت الأموال والاقواف والهبات بالمقابل تتدفق على الجماعة المقدسية وعلى المدرستين. وكانت الأبنية حول دير الحنابلة وعلى الجبل تنتشر وتتكاثر حتى أضحت البقعة في أقل من نصف قرن، بلدة كاملة ذات أسواق ومنازل وسكان ومساجد ومؤسسات وأفران وحمامات وحياة عامة واكتفاء بذاتها عن مدينة دمشق. (٤٠).

والواقع أن تأسيس الصالحية بجوار دمشق قد استجاب ، دون أن يدري المقادسة، الى مجموعة من الحاجات فرضتها ظروف ذلك العصر وعملت على ايجادها مجموعة من العوامل المتباينة ظهرت أثارها في دمشق بشكل تكاثفات وتحولات ديموغرافية عنيفة أخذت في تلك الأيام بالذات تزداد ضغطاً ووضوحاً في تلك المدينة الدهرية المحبوسة ضمن سورها المحدود .

أ) العامل السياسى : وهو أهم العوامل وأقواها أثراً فقد كانت الفترة التي

(٤٠) ياقوت (معجم البلدان ٣/٣٩٠) — يصفها حين ألف معجمه حوالي سنة ٦٢١ أي في أواسط العهد الأيوبي بأنها: «قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق وفيها قبور جماعة من الصالحين ويسكنها أيضاً جماعة من الصالحين لا تكاد تخلو منهم وأكثر أهلها ناقلة بيت المقدس على مذهب أحمد بن حنبل».

امتدت من أواسط القرن السادس الهجري حتى مطالع السابع فترة نشاط كثيف في مختلف جوانب الحياة السياسية والعسكرية والسكانية والعلمية والاقتصادية لم تعرفه الشام منذ قرون. تلك كانت ايام نور الدين ثم صلاح الدين ثم الملك العادل من بعده وتوحيد الجبهة الاسلامية ثم معركة حطين واسترداد القدس ومعظم فلسطين ثم الحروب الأيوبية حتى الحملة الخامسة والسادسة.. وقد تركز هذا النشاط في الدرجة الأولى في دمشق لاسبب توسطها وربطها بين بغداد والقاهرة فقط ولاسبب قيامها في قلب الجبهة الصليبية أيضا وعلى أبعاد محدودة ومتقاربة من مختلف مواقعها ولكن أيضا وأيضاً لأن شأن القاهرة في المقاومة تضاعف في العهد الفاطمي الأخير حتى انقرضت خلافتها وصارت جناحاً من أجنحة صلاح الدين ولأن دور الخلافة البغدادية كان بدوره ثانوياً في المعترك السياسي والحربي يومذاك مما مكن لدمشق ان تصبح القلب السياسي العسكري للشرق الاسلامي خلال هذه الفترة.

ب) العامل الاقتصادي : نتيجة لهذا التحول الجذري في مقدرات دمشق، تحولت المدينة الى مركز اقتصادي شديد الحيوية فهي الآن مركز السلطان وحاشيته وامرائه وجنده ومما يليكهم وما يتبع ذلك من موارد مالية واسعة وحاجات حيوية ملحة وتبذير في الكماليات والترفيه والبهزخ وانفاق متزايد في الحاجات اليومية وزيادة في الخدمات وكثافة مطردة في حركة القوافل والتجارة وتنوع في الحرف وتزايد في أعداد الحرفيين واتساع في أسواق الغذاء والملبس والأثاث والسلاح والكماليات بالإضافة الى حاجات العمران والبناء وما يتصل به. كل ذلك زاد في غنى وفي تعقيد البنى الاقتصادية وحركيتها في دمشق وزاد في الوقت نفسه في علاقاتها وفي حاجتها الى التوسع .

ج) التكاثر الديمغرافي : وقد نجم عن ذلك كله تكاثف في النزوح السكاني الى دمشق لامن الجند والعلماء وطالبي الوظائف أو العلم ولكن أيضا من التجار والصناع الذين يجذبهم النشاط الاقتصادي. والحروب في العادة تخلق الوان النشاطات وحاجات الجند والتحصين والتسليح التي لا تنتهي. فكان لابد من مدى

سكنى يستوعب ذلك التكاثر السكاني المتزايد ولا بد من مؤسسات تقدم له الخدمات المعاشية والروحية والعلمية وتنظم علاقاته الانتاجية.. ولا بد من حركة عمرانية وثقافة واقتصادية ترافق كل ذلك وكانت الصالحية واحدة من خمس مناطق أفرغت فيها دمشق تزايدها السكاني (الشاغور وقصر حجاج في الجنوب الغربي من سور المدينة والفراديس خارج السور من الشمال وهذه الأحياء الثلاثة ملاصقة لدمشق. ثم قرية المزة غربى دمشق. ثم هذا البلد الجديد البعيد في الشمال الغربى: الصالحية) (٤١).

وإذا كانت المؤسسات الدينية والعلمية والاقتصادية في البلد الأم، دمشق قد ابتلعت البقاع الثلاث الأولى ومنعتها من البروز الشديد ومن التميز بكيان خاص فإن انفصال الصالحية من جهة وبعدها النسبي عن المدينة وقديسة جبلها ثم المؤسسة العلمية التي حل آل قدامة عبء تألقها كل ذلك قد أسهم في نمو هذه الموقع السكنى الجديد وازدياد عمرانه بسرعة غريبة بالنسبة لذلك العصر.

على أن عوامل أخرى (محلية وعامة) أسهمت بدورها في ما أخذته الصالحية (وأسرة المقداسة) من مدى توسعى سريع وفي منحها التميز الدينى والبلداني الخاص بها وفي المزيد من لفت الأنظار إليها والاقبال على سكانها. وهذه العوامل كانت تتمم الأولى بالطبع وتعطيها المعنى الحقيقي.

د) العامل الدينى : وكان له في هذا المجال وجهان أحدهما على مرمى العين والثانى عام متصل بالعصر وكلاهما نابع من عملية الدفاع: فأما المحلى فهو ناجم عن الطابع الدينى المزدوج الذي التقى فيه تدين المقداسة مع قدسية جبل قاسيون.

(٤١) راجع ابن عساكر وصف مدينة دمشق في القسم الأول من الجزء الثاني (تحقيق المنجد - طبع دمشق ١٩٥٤) وابن شداد الاعلاق الخطيرة (قسم دمشق تحقيق الدهان) والنعيمي في المدارس في تاريخ المدارس (تحقيق جعفر الحسني - دمشق سنة ١٩٥١) وانظر كذلك في الموسوعة الاسلامية (الطبعة الجديدة) وانظر المصورات التي أرفقت بمختلف هذه الأبحاث أيضاً.

ويتضح دور آل قدامة في سمعتهم العلمية الدينية ودور قاسيون وما ينسب اليه من البركات في بروز الصالحية وتطورها السريع حين تقارن بينها وبين ضاحية المزة الماثلة لها على السفوح في غربى دمشق فقد ظلت مجرد قرية كبيرة لا تتميز بغير الكثرة الديموغرافية، بالقياس الى تطور المؤسسات العامة والدينية في جبل الصالحية. وعلماء المزة لم يدرسوا وبرزوا فيها ولكن في دمشق. ولم يكن غريباً مع الحماسة الدينية التي أعقبت فتح القدس، خاصة، ومع الأخطار الداهية التي أخذت بعد ذلك تهدد قلب العالم الاسلامى في الشام من الشرق (المغول) ومن الغرب (الصلبيين) أن يصبح مركز كالمركز الذى أقامه آل قدامة للعلوم الدينية في سفوح دمشق الشمالية مركز اشعاع روحى واسع يجتذب الكثير من الأساتذة والطلاب ومحظى باعجاب الناس على السواء .

وأما من الناحية العامة المتصلة بأجواء العصر وحاجاته فقد كان اللجوء الى الدين والتعمق فيه والمبالغة في الورع والمعرفة الدينية جزءاً من أعمال المقاومة وسبيلاً من سبل تأصيل الجهاد وشحن النفوس بالقيم والمعنويات. ويجب أن نضيف الى هذه كله دون شك أن الأتابكة والأيوبيين وسموا دمشق بسمه خاصة حين جعلوها موقعا حريباً — دينياً معاً. ولما كانت سياستهم متجهة بكاملها الى نصرة الاسلام السننى سواء بمحاربة الصليبيين خارجياً أو بمحاربة التشيع (الفاطمى وغيره) داخلياً لذلك نجدهم يشجعون كل النشاطات الدينية السنية، هم وامراؤهم، ويؤيدون وجود المزيد من شيوخ الدين، ومن بناء المدارس للعلم والمساجد والزوايا والربط للعبادة .

كان العصر عصر يقظة «السنة» وتنبيه روح الدفاع والجهاد. ومع انتقال المركز السياسى العسكري الى دمشق تجمع فيها أيضاً رجال جميع المذاهب السنية الشرقية. ولما لم يكن للمذهب الحنبلى من مكان مريح في دمشق مع سيطرة الشوافع فقد وجد هذا المذهب لنفسه مركزاً بجانب المدينة. وبينما برز في المجتمع الاسلامى احترام مؤسستين هما: الدينية والعسكرية، عملت جميع المذاهب السنية في خط دفاعى واحد داخلي خارجي همم ايقاظ الحيوية الدينية في الناس من أجل

الدفاع وإيقاد نار الجهاد في الصدور لضمان البقاء (هل نذكر ياترى كثرة ظهور كتب الجهاد في هذه الفترة؟) ولذلك كله كان انشاء الصالحية يؤدي وظيفة أساسية في جبهة الجهاد يومذاك و يلبي حاجة من حاجات العصر. وإذا لم تنشأ بوصفها مركزاً اقتصادياً وسياسياً أو عسكرياً فقد نشأت في الواقع بوصفها مركز دفاع ومقر مقاومة وتعبئة معنوية ضمن اطار العمل العسكري العام وأكملت لدمشق (السنية) جناحها الحنبلي الذي يعمق وجودها وأثرها الاسلامي .

وهكذا بينما كانت دمشق تأخذ صفات المدن الكبرى كانت الصالحية تتحول بجهود آل قدامة خاصة وسمعتهم وفي اطار الجوالسياسي الفكري العام الى «مدينة علم» تمتلئ بالمدارس - والعلم يومذاك يعنى علوم الدين - والى منطقة «بركة» ودين وقُدسيات و«تعبئة دينية» تكثف فيها المساجد والزوايا والترب. وتنافس في ذلك كله المدينة الأم دمشق. وقد تسارع ذلك بصورة خاصة وكثر بعد مطالع القرن السابع. أما قبل ذلك فكانت مرحلة الاعداد ومرحلة تكون المجتمع الحضري الذي سوف يحتضن النشاطات المختلفة. لهذا لانجد في الصالحية قبل سنة ٦٠٠ سوى:

(١) جامع واحد هو جامع الجبل (الذي عرف فيما بعد بالجامع المظفرى أو بجامع الصالحين أو بجامع الحنابلة وما يزال قائماً الى اليوم يحمل هذا الاسم نفسه) «وقد شرع أبو عمر المقدسى ببنائه سنة ٥٩٨ على نفقة (شيخ ذى غنى) هو الشيخ أبو داود محاسن (أو على) الفامى حتى بلغ البناء مقدار قامة فنفذ ما كان معه. وعلم الملك المظفر كوكبورى بن زين الدين صاحب اربل في العراق بالأمر فأرسل مع حاجبه شجاع الأربلى ثلاثة آلاف دينار لاقامه وألف دينار ليساق بها الماء إليه من قرية برزة (أو من بردى؟) وتعذر سوق الماء فصنع للجامع بئراً وعليه بغل يدور ووقف عليه الأوقاف (٤٢). وقد عبّر ببناء الجامع عن تحول الصالحية من مجتمع سكانى

(٤٢) ابن كثير - البداية والنهاية (ط . المعارف والنصر بروت ١٩٦٦) ج ١٣ ص ٣٢ و ص ١٣٦ وابن عبيد الهادي ثمار المقاصد في ذكر المساجد (ط مكتبة لبنان ١٩٧٥) ص ١٥٢ و ٢٠٩ والنعميمي - الدارس في تاريخ (ط. الجزائرى دمشق - ١٩٥١) ج ٢ ص ٤٣٥ - ٤٣٦، وابن

صغير أو قرية محدودة الى جماعة منظمة وبلد واسع يستحق اقامة منبر له،
منفصل عن منبر المدينة المجاورة دمشق.

(٢) مدرسة واحدة هي المدرسة العمرية .

(٣) أربع ترب (قبور) لكبار الدولة . وقد بدأ هذا التقليد ببناء المدافن الفخمة في الصالحية عماد الدين (٤٣) أحد أمراء نور الدين وصاحب بعلبك وتدمر الذي بنى تربة بنيت في الجبل (وبقاياها موجودة في الشركية) وكان طبيعياً ، مع سمعة قاسيون القدسية وجفاف تربته وبدء الاتصال المتماذي معه والعمران أن يكون مما يفكر به الكبراء اقامة المدافن الفخمة ذات القباب فيه وهكذا لحق العماد في بنائها حتى أواخر القرن أربعة آخرون فكانت : تربة فتح الدين أبي طالب سنة ٥٦٨ (٤٤) ثم تربة عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنروز وجة نور الدين ثم صلاح الدين سنة ٥٨١ (٤٥) ثم تربة الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين المتوفى سنة ٥٨٧ وقد بنتها له أمه ست الشام (٤٦) بنت أيوب (أخت صلاح الدين) ثم تربة شجاع الدين طغرل بن حيدر الملكى الناصري المتوفى سنة ٩٥٤ (٤٧).

وما كاد القرن السابع يطل حتى تحولت الصالحية الى ورشة عمران ونشاط اقتصادي - علمي . فقد توضع في شرقيها خاصة منذ أواخر عهد صلاح

← شداد - الاعلاق الخطيرة (قسم دمشق) ص ٨٩ وابن كنان المروج السندية ص ٣٩ - ٤٤ ونلاحظ أن المصادر تختلف في مصدر جلب الماء من بردي أو من قرية برزة . والأرجح أنه من قرية برزة ولذا ذكر خيراً قد يفيد في هذا المجال أورده ابن عساكر (ج ٢ قسم ١ ص ١٦٦) يقول: إن المأمون سبرقناة من ماء منين الى معسكره في ديرمران». وقرية منين واقعة خلف برزة في الجبال ويصل بينهما واد فيه مياه . وبرزة في شرق جبل الصالحية عند آخر هذا الوادي وديرمران في غربي الصالحية . وبين برزة والدير السفح الذي بنيت عليه الصالحية .

(٤٣) أبوشامة - الروضتين ج ١ ص ١٨٠ والقلائد الجوهري ١ ص ٢٢٦ .

(٤٤) القلائد ج ١ ص ٢٣٣ .

(٤٥) القلائد ج ١ ص ٥٥ والتربة ما تزال موجودة وبجانبتها الجامع الذي بنى حولها في أيام الذهبي المؤرخ (حوالي سنة ٧٣٠ - ٧٤٠) ويدعى الى اليوم الجامع الجديد في آخر طلعة حمام المقدم .

(٤٦) القلائد ج ١ ص ١٨٧ .

(٤٧) القلائد ١/٢٣٥ .

الدين مجموعة متزايدة من جنده الأكراد البطالين (الذين تقاعدوا عن العمل في الجندية) ومن النازحين (وماتزال بقاياهم موجودة في الحى المعروف حتى اليوم بحى الأكراد) وسكنها العديد من العلماء من مختلف البلاد ومن مختلف المذاهب (وبخاصة من الأحناف) وتكاثف فيها طلاب العلم والمتصوفة والزهاد. وقدم مع هؤلاء وهؤلاء مجموعات من الحرفيين وعمال البناء والخدمات العامة

وبالرغم من أن هذا النشاط «الصالحى» كان جزءا من نشاط دمشق العام وقسما متما لها بسبب ماعرفته دمشق في العهد الأيوبى من مكان سياسى وحربى واقتصادى ودينى ومن صلات تجارية منظمة مع التجارة الإيطالية أيام العادل ثم المعظم ثم الأشرف ومن تطور في صناعة الزجاج المذهب والسلاح والجلود والورق والبروكاد الحريرى والنحاس المطعم بالفضة وفي الفنون المعمارية. بالرغم من ذلك فقد تميز نشاط الصالحية عامة بأمرين مترابطين: العلم والعمران الدينى.

وإذا امتد العهد الأيوبى في دمشق الى مابعد أواسط القرن السابع بقليل فإننا نلاحظ أن الصالحية قد عرفت خلال هذه الفترة الكثير جدا من العلماء المستقرين فيها أو الزائرين لها ومن الطلاب المنتفعين فكانت - وظلت فيما بعد - خلية علم كما تميزت أبنتها الدينية العلمية بالرحابة والاتساع والاطلال الرائع على غوطة دمشق مما زاد في الاعجاب بها والتألق في بنائها. وقد ظهرت بها في العصر الأيوبى :

(١) أربع دور للحديث تقليدا لما ظهر منها في دمشق المدينة منذ عهد نور الدين :

— دار الحديث الضيائية التى أنشأها ضياء الدين المقدسى وكانت تسمى دار السنة أيضا.

— دار الحديث الأشرفية (٤٨) المقدسية وقد بناها الملك الأشرف مظفر الدين موسى

بن الملك العادل الأيوبي سنة ٥٢٩ للحافظ عبدالله بن تقي الدين عبدالغنى بن عبدالواحد المقدسى (٤٩). الذي ولد سنة ٥٨١ ورحل في الآفاق يطلب الحديث في العراق وخراسان ومصر والحرمين واشتهر بالورع والحفظ وشارك في الجهاد وقد توفي قبل الفراغ من بناء المدرسة سنة ٦٢٩ التى استمرت للحديث من بعده .

— دار الحديث العامة: وقد بنتها في غربي قاسيون العامة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلى وأوقفتها على أهل الحديث وكانت محدثة ولها مؤلفات كما كانت من أهل اليسار الكثير وقد تزوجها الملك الأشرف صاحب حمص (٥٠).
— دار الحديث الناصرية: وقد أنشأها سنة ٦٥٤ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازى بن صلاح الدين الأيوبي ملك دمشق وجعل فيها رباطا وتربة له فلم يدفن بها لأنه قتل في سنة ٦٥٩. بيد المغول (٥١).

(٢) جامعان جديدان :

جامع الماردانية: بين البساتين على نهر ثوراجنوب الصالحية (وهو في الجسر الأبيض اليوم) وفيه المدرسة الماردانية أيضا. وقد أنشأتها أخشا خاتون (بنت قطب الدين صاحب ماردين) زوجة الملك المعظم صاحب دمشق. أنشأت المدرسة والجامع سنة ٦١٠ ووقفته صاحبه سنة ٦٢٤ (٥٢)
— جامع الركنية: وهو في شرق الصالحية فوق قرية الميطور أنشأه ركن الدين منكورس الحنفى وأوقف عليه أوقافا كثيرة وجعل لنفسه فيه تربة دفن فيها ومايزال الجامع قائما. وعلى اسم صاحبه يسمى الحى كله اليوم باسم حى ركن الدين (٥٣).

(٤٩) انظر ترجمته لدى ابن رجب ذيل طبقات الحنابلة ٩٥/٢ — ٩٧.

(٥٠) المصدر نفسه ١ ص ٨٤ — ٨٥.

(٥١) القلائد ج ١ ص ٨٨ — ٩٣.

(٥٢) القلائد ج ١ ص ٦١ — ٦٢ وابن عبد الهادي ثمار القاصد ص ٢٤٩.

(٥٣) القلائد ج ١ ص ٤٩ — ٥٢ محمد بن كنان — المروج السندية ص ٢٧ ابن عبد الهادي — ثمار المقاصد ص ٢١٨ و ١٤٩.

(٣) ثلاث عشرة مدرسة : وكانت اثنتان منها للشافعية واثنتان للحنابلة وتوسع مدارس للأحناف. والسبب في كثرة المدارس الحنفية هنا أن معظم الأمراء والكبراء، وهم من الترك، كانوا على المذهب الحنفي، في الوقت الذي كانت دمشق فيه على المذهب الشافعي. فوجه الأحناف محالهم الحيوى إلى الصالحية. وهذه المدارس هي : —

— المدرسة الضيائية وقد أنشأها محاسن بن عبد الملك (المتوفى سنة ٦٤٣) وجعلها وقفا على من يكون «أمير الحنابلة» (٥٤).

— مدرسة الصاحبة ربعة خاتون بنت أيوب (أخت صلاح الدين) وقد بنيت سنة ٦٢٨ للحنابلة وتوفيت صاحبها سنة ٦٤٣ (٥٥).

— المدرسة البهنسية أنشأها أبو الأشبال الحارث البهنسى وزير الملك الأشرف موسى للفقهاء الشافعي وقد وقف عليها كته مع أوقاف كثيرة ودفن بها حين توفي سنة ٦٢٨ وكان من مدرسيها ابن خلكان (٥٦).

— المدرسة الأتابكية التي أنشأتها ترکان خاتون بنت اتابك الموصل وزوجة الملك الأشرف موسى وقد وقفتها حين توفيت سنة ٦٤٠ (٥٧) وقد درس بها بين من درس العلامة الأرموى، وبهاء الدين السبكي.

وأما المدارس الحنفية التسع فهي :

— المدرسة الجركسية أنشأها الأمير فخر الدين جهار كس أحد قادة صلاح الدين ودفن بها سنة ٦٠٨ ومات زال موجودة و يسمى باسمها الحى التى هى فيه (٥٨).

— المدرسة المقدمة (البرانية) وقد أنشأها الأمير يونس بن يوسف بن المقدم سنة

٦١٨ (٥٩)

(٥٤) القلائد ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥.

(٥٥) القلائد ج ١ ص ١٥٦ — ١٦٣ وللصاحبه تراجم عديدة منها لدى ابن خلكان وابن كثير والصفدي.

(٥٦) القلائد ج ١ ص ١٢١ — ١٢٤.

(٥٧) القلائد ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣.

(٥٨) القلائد ج ١ ص ١٣٥ — ١٣٨.

(٥٩) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٠ — ١٤١.

- المدرسة المعظمية غرب الصالحية وقد أنشئت سنة ٦٢١ بناها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وكان مولعا بالفقه والأدب والشعر (٦٠).
- المدرسة الشبلية وقد بناها على جسر نهر ثورا سنة ٦٢٣ الأمير الطواشي شبل الدولة الحسامي ودفن فيها سنة ٦٢٦ (٦١).
- المدرسة العَلَمِيَّة في أقصى شرقي الصالحية بناها الأمير علم الدين المعظم سنة ٦٢٨ وكان فيها عشرة قراء مرتب لهم خبز يومي (٦٢).
- المدرسة الميظورية وكانت في جوار العلمية الى الغرب وقفتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة ٦٢٩ (٦٣).
- المدرسة القاهرية وكانت على حافة نهر يزيد غربى المدرسة العمرية. أنشأها الملك القاهر اسحق ابن الملك العادل (وهو شقيق الملك المعظم لأبيه) في حدود سنة ٦٣١ (٦٤).
- المدرسة العزيزية بجوار المدرسة المعظمية في أقصى غرب الصالحية وقد أنشأها الملك العزيز عثمان شقيق المعظم سنة ٦٣٥ (٦٥).
- المدرسة اليعمورية غربى الصالحية (وموضعها اليوم في السكة فيما يسمى بين المدارس) وقد بناها الأمير جمال الدين يغمور الياروقى نائب دمشق حوالى سنة ٦٥٠ - ٦٥٥ وقد توفي سنة ٦٦٣ (٦٦).

٤ — البيمارستان القيمرى : الذي اكتمل به الجانب الصحى للبلدة الجديدة

- (٦٠) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٣ - ١٥٠.
- (٦١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٤ - ١٣٠.
- (٦٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣٣ - ١٣٤.
- (٦٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤١ - ١٤٢.
- (٦٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥.
- (٦٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣١ - ١٣٣.
- (٦٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣٨.

كى توازى المدينة الأم وقد أنشأه الأمير سيف الدين بن يوسف القيمرى الكردى المتوفى سنة ٦٥٤ وأوقف عليه الأوقاف الواسعة وهو ما يزال قائما الى اليوم بواجهته الرائعة (بجوار جامع الشيخ محى الدين بن عربى الى الغرب) وبالقرب منه تربة الأمير نفسه الذي أعطى اسمه للحى باسم الشيخ قيمر. يقول ابن عبد الهادى عن المارستان أنه «ليس في الدنيا أحسن منه» وهويطل على بساتين الصالحية ونهر يزيد تحته وفيه في صدره ايوان عظيم وعلى طرفيه قاعتان واسعتان تشرفان على البساتين وفيه قاعتان أخريان للمسؤولين من المرضى: قاعة للرجال وأخرى للنساء وحاصل في شرقه معدل للأدوية من شرابات ومعاجين وأكحال وأشياف (أى أدوية العين) وفي جانب ذلك مطبخ للمزورات (طعام المرضى) وفي غربه قاعة للمجانين وبجوارها حاصل للغلال التي ترد اليه من أوقافه الكثيرة. وفي وسطه بركة واسعة يأتيها الماء بناعورة مركبة على نهر يزيد فهي لا تنقطع عن الدوران . وكان للمارستان طبيب وكحال وشراباتي وعامل ومشارف (مدير) وخدم للرجال والنساء ومحفات لحمل المرضى .

(٥) بدء انتشار زوايا الصوفية: وقد تنبه الزهاد والصوفية الى موقع الصالحية وبركاته ودبيب العمران فيه فبدأ في هذه الفترة الأيوبية انشاء الزوايا فيه ونعد منها فقط أربع زوايا: الزاوية الملكية التي بنيت سنة ٦١١ تحت كهف جبريل والفرنثية قبيل سنة ٦٢١ والزاوية الدينورية قبيل سنة ٦٢٩ والأرموية سنة ٦٣١ التي نقرت في الصخر (٦٨) وكان لكل واحدة منها الزاهد الذي اشتهرت به بكراماته. لكن هذه الزوايا سوف تزداد الى عشر قبل نهاية القرن السابع. وكان لهذه الزوايا أوقاف وبعضها كان من الغنى الوقفى بحيث يقدم الأطعمة للفقراء في بعض أيام الأسبوع وفي رمضان والعيدين كالزاوية الملكية .

(٦) اعداد من الترب الفخمة : ونصف الترب التي أقيمت في الصالحية انما بنيت في العهد الأيوبي (٣٢ من ٦٤ تربة) وقد بنى منها مابين سنة ٦٠٠

(٦٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٦٨) انظر القلائد ج ١ ص ٢٠٧ / ١٩٧ / ١٩٣ / ١٩٢ بالترتيب .

وسنة ٦٥٠ تسع وعشرون تربة ملأت الصالحية قبابا وقبوراً للأمرء والكبراء ومن أصحاب هذه التربة الأيوبية: المجد البهنسى وزير الملك الأشرف توفى (سنة ٦٢٨) وجمال الدين عبدالرحيم بن علي بن الحسين بن شيث الاسناني القوصي صاحب ديوان الانشاء للملك المعظم (سنة ٦٢٥) والأمير سنقر الحلبي الصلاحى من قواد صلاح الدين (توفى سنة ٦٢٠) ومثله الأمير شركى (جهار كس - سنة ٦٠٨) والأمير داود بن ايدكين الصالحى (توفى سنة ٦٣٠).

ومن العلماء : مهذب الدين الدخوار الطبيب المشهور (ت. سنة ٦٢٨) صاحب مدرسة الطب الدخوارية وعلى بن محمد بن عبدالصمد السخاوى شيخ النحاة والقراء والفقهاء في زمنه (سنة ٦٤٣) وقاضى القضاة عز الدين محمد بن عبدالقادر المعروف بابن الصائغ (٦٩).

٤ - الصالحية في العصر المملوكى :

حين أطل العصر المملوكى على الشام بعد سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ وهزيمة المغول كانت الصالحية قد استكملت حاجتها من النشاط العمرانى والسكاني ومن المؤسسات العامة والأسواق، وقد بدأت فورة ذلك النشاط الواسع تهبطاً وبدأ الخط البيانى لتطورها يأخذ المستوى الرتيب المتمادى بعد أن كان في صعود عنيف خلال السنوات الخمسين أو الستين السابقة. وفي الوقت نفسه كانت الأسرة القدامية قد أطلقت أقصى طاقاتها وحيويتها في كبار العلماء الذين أخرجتهم فأجياها التالية من بعد سوف تحاول الوصول الى القمم السابقة التي وصلها الآباء والأجداد.. ونلاحظ شيئاً فشيئاً تراخى التأثير والتأثير بين الأسرة والبلد الذي أسسته، ولم يعد القداميون أعلام العلم الوحيدين في الصالحية كما لم تعد الصالحية بالمقابل وحيدة المذهب الخنبلى أو وحيدة النشاط . وانفصل الطرفان فكل منهما سوف يتابع تطوره الخاص ..

(٦٩) انظر القلائد ج ١ ص ٢١٤/٤١٧/٢١٧/٢٢١/١٣٥/٢٣٩/٢٣١/٢٣٨/٢٤٠.

وسنة ٦٥٠ تسع وعشرون تربة ملأت الصالحية قبابا وقبوراً للأمرء والكبراء ومن أصحاب هذه التربة الأيوبية: المجد البهنسى وزير الملك الأشرف توفى (سنة ٦٢٨) وجمال الدين عبدالرحيم بن علي بن الحسين بن شيث الاسناني القوصي صاحب ديوان الانشاء للملك المعظم (سنة ٦٢٥) والأمير سنقر الحلبي الصلاحى من قواد صلاح الدين (توفى سنة ٦٢٠) ومثله الأمير شركى (جهار كس - سنة ٦٠٨) والأمير داود بن ايدكين الصالحى (توفى سنة ٦٣٠).

ومن العلماء : مهذب الدين الدخوار الطبيب المشهور (ت. سنة ٦٢٨) صاحب مدرسة الطب الدخوارية وعلى بن محمد بن عبدالصمد السخاوى شيخ النحاة والقراء والفقهاء في زمنه (سنة ٦٤٣) وقاضى القضاة عز الدين محمد بن عبدالقادر المعروف بابن الصائغ (٦٩).

٤ - الصالحية في العصر المملوكى :

حين أطل العصر المملوكى على الشام بعد سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ وهزيمة المغول كانت الصالحية قد استكملت حاجتها من النشاط العمرانى والسكاني ومن المؤسسات العامة والأسواق، وقد بدأت فورة ذلك النشاط الواسع تهبطاً وبدأ الخط البيانى لتطورها يأخذ المستوى الرتيب المتمادى بعد أن كان في صعود عنيف خلال السنوات الخمسين أو الستين السابقة. وفي الوقت نفسه كانت الأسرة القدامية قد أطلقت أقصى طاقاتها وحيويتها في كبار العلماء الذين أخرجتهم فأجياها التالية من بعد سوف تحاول الوصول الى القمم السابقة التي وصلها الآباء والأجداد.. ونلاحظ شيئاً فشيئاً تراخى التأثير والتأثير بين الأسرة والبلد الذي أسسته، ولم يعد القداميون أعلام العلم الوحيدين في الصالحية كما لم تعد الصالحية بالمقابل وحيدة المذهب الخنبلى أو وحيدة النشاط . وانفصل الطرفان فكل منهما سوف يتابع تطوره الخاص ..

(٦٩) انظر القلائد ج ١ ص ٢١٤/٤١٧/٢١٧/٢٢١/١٣٥/٢٣٩/٢٣١/٢٣٨/٢٤٠.

والواقع أن الأحوال العامة للصالحية وقبل أن ينتصف القرن السابع قد أضحت قطعة من حياة دمشق مشابهة لها في التكوين والبنى والمعطيات والمؤسسات الا في النشاط الاقتصادي - التجاري وفي البراعات الحرفية فانها ظلت مقصورة بالطبع عن المدينة الأم بحكم اعتزالها في سفح الجبل وانغلاق الاتصال بينها وبين البلاد الأخرى إلا عبر دمشق وعدم وجود الطرق المباشرة اليها والخاصة بها إلا عن طريق دمشق بالاضافة الى ضيق مجالها أمام المجالات الدمشقية الواسعة. ولم يكن بإمكانها أن تنافس المدينة التي تستأثر بالسلطة السياسية (ففيها نائب السلطنة وحاشيته ودواوين الدولة) وبالقوى العسكرية (ففيها مقر الجند) وبالحركة الاقتصادية الخارجية والداخلية (ففيها التجار الأجانب والفنادق والخانات والأسواق الغنية) وبالنشاط العلمي (المتمثل في مدارسها وجوامعها ومساجدها وزواياها والأربطة..). لذلك كان محكوما على الصالحية أن تبقى بلدة صغيرة محدودة التوسع وأن تبقى في الطابع العام بين المدينة والقرية وأن لا تتجاوز حدود ذلك على أى حال .

ويكشف احصاء المؤسسات العامة فيها في العهد المملوكى (مابين أواسط القرن السابع حتى نهاية القرن التاسع ومطالع العاشر) أنها تابعت الحياة الرتيبة التي تكونت فيها من قبل، وعلى الوتيرة السابقة نفسها والمؤسسات الأيوبية ذاتها فيما عدا مؤسسات التصوف.

ولو استعرضنا مآظهر في الصالحية من المؤسسات في القرن الثامن، - بما عدا المساجد - لما وجدنا إلا دارا واحدة للحديث (هى دار الحديث القلانسية التي بنيت سنة ٧٢٠) ومدرسة واحدة للأحناف (هى المدرسة الجمالية التي أسست سنة ٧٤٨) وخانقاه واحدة أو اثنتين (هما الخانقاة العزية في مطالع القرن والخانقاة القلانسية أيضا سنة ٧٢٠) وزاوية واحدة (هى الزاوية الغسولية حوالى سنة ٧٣٧) أما الترب فقد استمرت في التزايد ونعد منها ١٨ تربة (٧٠). وثمة

(٧٠) أنظر القلائد ج ١ ص ٨٥/١٥٥/١٨٩/٨٥/١٩٦ بالترتيب وأما الترب فنجدها في الصفحات ٢١٤/٢٢٠/٢٢١/٢٢٦/٢٢٧/٢٢٩/٢٣٠/٢٣٥/٢٣٦/٢٣٧/٢٣٩/٢٤١.

بیمارستان شرقی الصالحیة يدعى المارستان الشرقي كان مند ثرا في القرن التالي ولعل بناءه يعود الى هذا القرن (الثامن) أو القرن السابق (٧١).

وقد أصيبت الصالحية، مع دمشق، بضربتين قاسيتين أشد القسوة وبين الواحدة والأخرى قرن من الزمان. وقد حضر الضربة الأولى (ابن تيمية) وحضر الثانية (ابن خلدون)، وكان لكل منهما دوره الواضح في محاولة دفع النكبة عن البلد دون طائل.

كانت الأولى ضربة قازان سنة ٦٩٩ / ٣٠٠م آخر القرن السابع فقد نزل جيش التار بدمشق يطوقها وبالرغم من أن المدينة استسلمت (عدا القلعة) وخطب فيها لقازان على منبر الجامع الأموي بحضور التتر (الجمعة ١٤ ربيع الثاني سنة ٦٩٩) إلا أن جيوش التتر وصاحب سبب المراقبة على جبل الصالحية شرعت في اليوم التالي في نهبها....

وهكذا «نهب مسجد الأسدية فيها ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية واحترق جامع التوبة بالعقبة» (عند سور دمشق) واستمر العدوان يتصاعد اسبوعين.. يقول ابن كثير «وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصاري الذين هم مع التتار» «وسبوا من أهلها (الصالحية) خلقا كثيرا وجا غفيرا. وجاء أكثر الناس الى رباط الحنابلة فاحتاطت به التتار فحماء شيخ الشيوخ (محمود بن علي الشيباني) وأعطى في الساكن مال له صورة. ثم أقحموا عليه فسبوا منه خلقا كثيرا من بنات المشايخ وأولادهم فانا لله وانا اليه راجعون..»

و«لما نكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الأولى قتلوا خلقا من الرجال وأسروا من النساء كثيرا ونال قاضي القضاة تقي الدين أذى كثيرا ويقال انهم قتلوا من أهل الصالحية قريبا من أربع مائة وأسروا نحو من أربعة آلاف أسير».

ولم تقتصر النكبة على النهب وهدم الدور واحراق وأسر الناس وقتلهم ولكنها تناولت التراث العلمى أيضا فقد «نهب كتب كثيرة في الرباط الناصرى و (المدرسة) الضيائية وخزانة ابن البزورى وكانت تباع وهى مكتوب عليها الوقفية...».

«وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية وكذلك بداريا وبغيرها وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسرا وقتلوا منهم خلقا وسبوا نساءهم وأولادهم...» ومن من نكب وقاسى الشدائد العظيمة عز الدين أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي الذي توفي إثر ذلك اول سنة ٧٠٠ (٧٢).

غير ان الصالحية استردت من جديد نشاطها بعد النكبة وزوال الرعب التترى وقد وصفها ابن بطوطه حين زار دمشق (وقد زارها سنة ٧٢٩ وسنة ٧٤٩) بأنها «مدينة عظيمة لها سوق لانظير له وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة أبى عمر موقوفة على من أراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجربى لهم ومن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملبس . وبداخل البلد (يعنى دمشق) مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا (حنبلية) وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل...» (٧٣).

أما الضربة الثانية للصالحية فكانت بيد تيمور لنك يوم سحق دمشق سنة ٨٠٣ / ١٤٠١ ولم يكن ماحل بالصالحية مختلفا عما رواه ابن عربشاه وابن تغرى بردى حول نكبة المدن من قتل وذبح ومصادرة أموال ونهب متاع وهتك أعراض وحرقات فقد نزلت أقسام من جند تيمور بسفح قاسيون حتى قبة سيار وضرب تيمور معسكره هناك (٧٤). ويبدو أن مفاوضة الدمشقيين معه (ومع الوفد ابن

(٧٢) ابن كثير ج ١٤ ص ٨ وابن رجب ٢ ص ٤٦٥.

(٧٣) ابن بطوطه الرحلة (ط . دار صادر بيروت ١٩٦٤) ص ١٠١.

(٧٤) انظر ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٠ - ٢٤٨ وابن عربشاه عجائب المقدور (تحقيق علي محمد عمر ط . دار الانصار بالقاهرة سنة ١٩٧٩) ص ١٤٨ - ١٧٧ وقبة سيار

معروفة الموضع. وماتزال بقاياها قائمة في أعلى جبل المهاجرين.

خلدون) كانت تتم في هذا المعسكر على الجبل بينما كان جنوده يطوقون الشام وراء غوطتها من قطنا وداريا الى الحولة الى سفح الصالحية التي فر الكثير من أهلها لاجئين الى أسوار دمشق.. ويبدو أن داو اد ار تيمور أمين الرسائل عنده نزل في المارستان القيمرى وأعجب به وبرحابته وبنزهته (٧٥). بينما كان جنود تيمور يتوغلون في قرى الغوطة وفي الصالحية نفسها، وينهبون ما يشاءون .

وحين وزع تيمور أحياء دمشق ومناطقها غنائم لجنده كانت الصالحية بين الغنائم وأصاب مدارسها ومساجدها وكتبها والزوايا والرجال والنساء ما أصاب دمشق. وقتل بين من قتل من العلماء المحدث عمر بن محمد عبد الهادي واخته المحدث فاطمة. وكانت النكبة عامة. يقول ابن قاضي شهبه «ومن عجيب ما وقع ان المدرسة الميظورية بين الصالحية والقابون سلمت الى بعد الوقعة.. فهدمت (بعد ذلك) وأخذت آلتها» (٧٦) وقد عادت الصالحية تنهض مرة أخرى بعد النكبة التيمورية بل عرفت بعض الأزدهار أيضا فقد وصفها القلقشندى في كتابه صبح الاعشى الذى أتمه سنة ٨١٤ بقوله: «مدينة الصالحية مدينة ممتدة في سفح الجبل تشرف على دمشق وضواحيها ذات بيوت ومدارس وربط وأسواق وبيوت جليلة. ولكل من دمشق والصالحية البساتين الأنيقة يتسلسل جداولها وتغنى دوحاتها والجواسق العلية والبرك العميقة والبحيرات الممتدة والحوار الممشوق والرياحين المتأرجحة الطيب والفواكة الجنية والثمرات الشهية والأشياء البديعة التى تغنى شهرتها عن الوصف ويقوم الايجاز فيها مقام الاطناب..» (٧٧).

ويبدو أن الازدهار العام الذى شمل السلطنة المملوكية في القرن التاسع، وأفادت منه دمشق والقاهرة قد لامس بدوره الصالحية وهى الكوكب

(٧٥) القلائد ج ١ ص ٢٤٤.

(٧٦) المصدر نفعه ص ١٤٢ نقلا عن ابن قاضي شهبه.

(٧٧) القلقشندى - صبح الأعشى ج ٤ ص ٩٤.

التابع لدمشق. فقد أدت مضايقات الدولة العثمانية وتطويقها في تلك الفترة لبقايا الامبراطورية البيزنطية حول القسطنطينية الى اضطراب طرق التجارة العالمية المستقرة منذ قرون بين الشرق والغرب. ثم احتل العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فأنهوا الوكالات التجارية وقبضوا على الجاليات الأجنبية المحتكرة للتجارة فرحل التجار والطرق معهم الى الشام ومصر بالأعداد الضخمة مع مصارفهم والخانات والمخازن والفنادق في الوقت الذي نظمت فيه السلطة المملوكية عملياتها التجارية وضبطت عيار النقود. واستقبلت بالترحاب وفود المدن التجارية الإيطالية ونشاطات شركة جاك كور الفرنسية (٧٨) بين دمشق والاسكندرية وفرنسا والتجار القبطالونيين. ولكن هذا النشاط كله خمد في نهاية القرن بسوء سياسة الممالك واحتكارهم كل شيء من جهة وباكتشاف امريكا وطريق الهند من جهة أخرى .. وانتهت البلاد الى العزلة والى الحكم العثماني.

وقد أفادت دمشق من ذلك النشاط التجاري في القرن التاسع لأنها كانت البلد الثاني في المنطقة بعد القاهرة وفيها نيابة السلطنة وكانت أسواقها مستودع التجارات بين وسط آسيا وأوربا. وقوافلها في مواسم التجارة تصل الى حوالى ١٥ ألف جمل وفيها الوكالات والفنادق والقناصل .. (٧٩).

وقد ظهر تأثير ذلك كله في الصالحية حين عادت الى الظهور عدد من المنشآت التي اختفت في القرن السابق ومنها :

(١) داران من دور القرآن : ولأول مرة تعرف الصالحية هذه الدور التي كانت

(٧٨) كانت هذه الشركة تحتكر تجارة فرنسا وأوربا مع السلطنة المملوكية في تلك الفترة ولها ٣٠٠ فرع في شرقي المتوسط وغربه مع أسطول ضخيم وبلغ من ثرائها أنها كانت تقرض الملوك والدول الأموال الطائلة. وقد هرب صاحبها من غضب الملك سنة ١٤٥٠ ثم مات سنة ١٤٥٦ ولكن نشاطات الشركة استمرت بعده.

Heyd : histoire du commerce du levant ; leipzig, 1925 T. I. P 458

(٧٩) انظر

T.I. P 458 Depping G.B. his . du commerce entre le levant et

l, europe , paris 1830 .

دمشق قد عرفتھا منذ القرن الخامس (دار القرآن الرشائية التي أقامھا رشا ابن نظيف المتوفى سنة ٤٤٤) والتي انتشرت فيها في القرن الثامن خاصة. وهكذا ظهرت دار القرآن الاسعرتية سنة ٨١٧ ثم دار القرآن الدلامية سنة ٨٤٧ (٨٠) والداران من بناء بعض كبار التجار وماتزال الدلامية موجودة اليوم مع الجامع المتصل بها وكانتا في موضعين متقاربين من الجسر الأبيض وأول طلعة حمام المقدم).

(٢) دار الحديث النظامية: شرقي الصالحية وقد أنشأها قاضي القضاة عمر بن ابراهيم بن مفلح الراميني المقدسي الحنبلي حوالي سنة ٨٥٠ أو قبل ذلك (٨١).

(٣) جامع الحاجبية: وقد أقيم جنوب مدرسة أبي عمر، بناه الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الاينالى سنة ٨٧٢ من الحجر (٨٢) وأقام بالقرب منه حماما. (وقد دثر الجامع بزلزال أسقط مئذنته عليه سنة ١١٧٣ هـ ثم نقض الناس حجارته وأما الحمام فما يزال قائما).

(٤) المدرسة الآمدية: للأحناف: كانت في شرقي الصالحية أنشئت قبل سنة ٨٢١ ولعل ذلك في القرن الثامن وبها تربة لصاحبها (٨٣).

(٥) خانقاوان اثنتان هما:

— الخانقاه الباسطية بالجسر الأبيض وقد أنشأها القاضي زين الدين

عبدالباسط بن خليل ناظر الجيوش (المملوكية) والخوانق والكسوة

الشريفة (٨٤) أيام الأشرف برسباى سنة ٨٣٦.

— خانقاه جامع الحاجب الأمير محمد بن مبارك (٨٥).

(٨٠) القلائد الجوهريّة — ج ١ ص ٧١ — ٧٣ و ص ٧٣ — ٧٥.

(٨١) القلائد ج ١ ص ٨٧ — ٨٩.

(٨٢) القلائد ج ١ ص ٥٢.

(٨٣) المصدر نفسه ص ١٢٤.

(٨٤) المصدر نفسه ص ١٨٤ — ١٨٦.

(٨٥) المصدر نفسه ص ١٩١ و ٥٤.

٦) الزوايا وقد بنى منها ٢٥ زاوية في الصالحية وانما كثرت نتيجة انتشار المد الصوفي بين الناس في تلك الايام وتكاثر الفرق الصوفية وتنوعها وسيطرة العقلية الغيبية على الفكر. وقد كان في الشام مايزيد على سبعين طريقة للمتصوفة (منها الرفاعية والقادرية (الجيلانية) والنقشبندية والكلندرية والوفائية واليونسية..) ولها مشايخها وأذكارها والمريدون والأوقاف والطقوس ولهذا أقيمت في الصالحية ١٣ زاوية في القرن التاسع وخمس في العاشر.

وكانت أعظم هذه الزوايا كما يقول ابن عبد الهادي هي الزاوية الداودية التي أنشأها الشيخ أبوبكر بن داود الصوفي (الجيلاني) الصالحى الحنبلى في حدود سنة ٨٠٠ ولم يتممها فأتمها ابنه من بعده «وجعلها من العجائب» فقد وسعها وجعل لها الاوقاف ومنها حملان من الثلج لتبريد الماء.. وكان لها مدار للماء وصهريج وايوان ومسجد وخلوى كثيرة للفقراء ومغارة وميضأة وبيت للكتب الموقوفة ومساكن للنساء. ولها امام ومؤذن وقِيم وواعظ وتوزع فيها ألوان الأطعمة ويقام بها الذكر كل ليلة ثلاثاء ويقصدها الناس من كل جهة (٨٦). فهي أغنى زوايا الصالحية التسع والعشرين.

٧) أربع ترب : لبعض الأمراء والتجار. ومنها تربة الأمير سودون (سنة ٨٤٨) والتربة الشهابية (سنة ٨٢٩) والخواجكية (سنة ٨٢٦). (٨٧).

ان هذه اللوحة للأعمال العمرانية في الصالحية خلال القرن التاسع تكشف ان الاتجاه الفكرى العام لم يكن باتجاه العلوم الدينية من قرآن وفقه وحديث ولكن باتجاه الفكر الصوفى الغيبى الذى غلب على كل اتجاه آخر والذي سيظل سائدا في العصر العثمانى التالى.

وعلى أى حال ففى مطالع القرن العاشر حين كان مصير الشام يتجه

(٨٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٥.

(٨٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٣/٢٢٢/٢٣٤ بالترتيب.

للموقع في أيدي العثمانيين سنة ١٥١٦/٩٢٢ بعد ثلاثة قرون ونصف القرن من انشاء الصالحية وتطورها كان هذا البلد يحوى في تخطيطه العام سوقاً رئيسية تمتد من الغرب الى الشرق، بموازة نهر يزيد، بعيداً قليلاً عنه. ومركزها في الوسط حيث يقوم على الجانبين من شمال السوق جامع الحنابلة ومن الجنوب المدرسة العمرية وتتفرع منها صعداً في سفح الجبل ونزولاً نحو النهر أزقة ضيقة تقسم الى ٣٨ حارة بعضها واسع كثيف السكان مثل حارة الحياك (غربي جامع الحنابلة وبها ١٧ مسجداً) وحارة الجامع نفسه (٦ مساجد) وحارة المدرسة العمرية (٦ مساجد) وهما في وسط الصالحية ومركز الحركة فيها، وثمة حارات الشبلية (٩ مساجد) والخراب (١٠ مساجد) والركنية (٧ مساجد) ورأس العلية الصاحبة (١١ مسجداً) وهى في شرق الصالحية حيث يسكن الأكراد الأيوبيون. ونجد في جنوبى الصالحية حارتى الجسر الأبيض والدلامية (١٥ مسجداً) وفي غربها حارات سوق شعيب والسكة (١٠ مساجد) والفواخير (٧ مساجد) والبلاقنة (٦ مساجد). وتخطيط هذه الحارات كان عشوائياً وقد خضع لتضاريس السفح المنحدر ولأهواء التراكم السكانى (وما يزال ذلك واضحاً في مخطط الصالحية الى اليوم) وجميع الدروب، بما في ذلك السوق الرئيسية غير مبلطة وتكتسحها في الشتاء السيول الهابطة على السفح ولايزيد البناء على طابقين سفلى وعلوى لأن معظم بيوتها طينية (من اللبن والخشب). وتقوم معظم الأبنية الهامة والحجرية على امتداد السوق الرئيسية أو بقربها. وتشمل هذه الأبنية دارين من دور القرآن وستة من دور الحديث وخمس جوامع ومائة واربعة وأربعين مسجداً وست عشرة مدرسة (عدا المدارس في الزوايا والخوانق والمساجد) منها اثنتا عشرة للأحناف واثنتان للشافعية ومثلهما للحنابلة وكان في الصالحية خمس خوانق ومارستانان (أحدهما مندثر) و ٢٩ زاوية و ٦٤ تربة وسبعة وعشرين حماماً (عدا حمامات البيوت المعروفة) و ١٦ رباطاً للنساء والأرامل والأيتام عدا ما كان فيها من الخانات (١٣ خاناً) والأسواق (١١ سوقاً) والقصور (١٢ قصراً) والمعاصر والبساتين والطواحين والاسطبلات. وتعلو البلد غابة من المآذن والقباب تظهر فيها ٢٤ مثذنة وعشر قباب كبرى عدا قباب الترب بينما حفر في أرضها الكثير جداً من الآبار وقد أحصى ابن طولون ما يعرفه منها فكانت

٤١ بئرا (٨٨) الى نهريزيد المار على امتداد الصالحية ونهر ثورا المار كذلك دونه بقليل.

وكان سكان الصالحية أخلاطاً من مختلف بلاد الشام والعراق والجزيرة وبخاصة من فلسطين معهم جماعات من الجند البطالين الاكراد والأتراك والخوارزمية وهكذا نرى فيها حارات البواعنة (من باعونة) في فلسطين او باعون من قرى عجلون والجرارعة (من الجرارة قرب نابلس) والمرادوية من (مردا) والبلاقنة (من بلقين) والتيامنة من وادي التيم وحارة التغالبة والخوارزمية. كما نسمع من انساب العلماء بالأسعدي والبالسي والسنجاري والتكريتي والخليلي والراميني (٨٩). وليس ثمة احصاء في المصادر يقدر عدد سكان الصالحية وقد لانكون مجازفين اذا قدرناهم خلال عصر المماليك بما بين ٢٠ الى ٢٥ ألفاً في اقل تقدير استناداً الى عدد الجوامع والحمامات (٩٠) وآبار الماء لأن المؤسسات الأخرى لا تكشف العدد السكاني.

(٨٨) استقيننا هذه الاحصائيات من مجموع ما ورد في القلائد الجوهريّة عن مفرداتها وهي باعتراف المؤلف محدودة، بمقدار علمه لا بمقدار الواقع الذي يزيد عليها. وقد عدلنا ما يتعلق منها بالمساجد والحمامات على ضوء ما ورد لدى ابن عبد الهادي في ثمار المقاصد (من ص ١٤٥ الى ١٥٩) حيث ذكر حارات الصالحية تفصيلاً مع مساجدها، وما جاء في رسالته عن الحمامات (مجلة المشرق سنة ٩٤٩ من ص ٤٠٩ الى ص ٤١٩) كما أضفنا الى ذلك ما ورد في المروج السندية حول الحمامات والأسواق والخانات والقصور مما نقله ابن كنان عن ابن طولون وابن عبد الهادي وفقد في النسخة المخطوطة الوحيدة التي نشر عنها كتاب القلائد. انظر في المروج الصفحات ٣٠ - ٣٦.

(٨٩) انظر مثلاً القلائد ج ١ ص ٢٤٩ و ص ٢٥٣ و ج ٢ ص ٤٥١ و ثمار المقاصد: ص ١٥٤ و ص ١٥٨.
(٩٠) اعتبرنا المسجد الواحد بين كبير وصغير بخدم ٥٠ مصلياً وإذا كان مجموع المساجد والجوامع هو ١٤٩ فالمصلون هم حوالي سبعة آلاف شخص يمثل كل منهم أسرة من ثلاثة أفراد أو أربعة (زوجة وولدين) فالمجموع ٢٢ ألفاً الى ٣٠ ألفاً. واعتبرنا ان الحمام يخدم يومياً ما بين ٣٠ - ٤٠ شخصاً في المتوسط (١٠ الى ١٥ أسرة من ٣ الى ٤ أفراد) فالمجموع اليومي في حمامات الصالحية هوبين ٨٠٠ الى ١٠٠٠ شخص فإذا كانت دورة الاستحمام مرة في الشهر فان هذا يعني ان عدد السكان هوبين ٢٤ الى ٣٠ ألفاً تقريباً.

والطبقات البارزة في المجتمع الصالحاني كانت طبقة العلماء والمتصوفة والفقهاء والعاملين في المجال الدينى وفي تدريس العلم وطلبه لأنهم يمثلون الاتجاه العام في اهتمامات البلد. والأسماء التي حفظتها كتب التراجم من كبار أهل الصالحية في العصر المملوكى تضم فيما احصيناه حوالى الثلاثين من المحدثين والمحدثات وقربة الستين من المسندين والحفاظ وثلاثين آخرين من العلماء والقضاة وحوالى العشرين من الزهاد ولا تمثل هذه الأرقام سوى الذين فرضتهم سمعتهم على مؤلفي الطبقات والتراجم وقد سكن الصالحية أيضا عدد من أفراد الدولة (٩١) كما سكنها عدد من كبار القضاة وبعض التجار (الخواجكية) وبعض الملاكين (كبنى القلانسي) كانوا يتقسمون فيما بينهم الى مجموعة من الأسر البارزة المتخصصة فشمة أسر الشيوخ القداميين وغيرهم وأسرة العلماء والقضاة وأسرة التجار وكلها متميزة معروفة .

على ان هذا لايعنى عدم وجود طبقات واسعة من العامة تكمل هذه الطبقات المميزة وتشكل أضعافها في العدد وتقوم بالنشاطات الاقتصادية الحيوية للبلدة. واذا كانت عزلة الصالحية قد منعت من وجود طبقة تجارية هامة فيها فقد كان اقتصادها يقوم على الطبقات العاملة والحرفية كالعاملين في الطعام (الأفران والطواحين، والمخابز، والجزارة وبعضهم كالمرادوة كانوا يذبحون الجواميس) وباعة الخضار والفواكه وهى كثيرة في الصالحية لا تصالها المباشر باليساتين وباعة الحبوب وأصحاب المهن والحرف (البناء. النجارة. البيطرة. السروج. الحياكة والقماش وهى «مائة صنف» الورق . الحدادة. الدباغة. الخياطة. الصباغة. الطبابة. بالاضافة الى الجرائحين والشماعين والحجارين والابارين..). والعمال في الخدمات العامة (حمولة. سقاية. دلالة. قبان. سمسة..). لكن الطبقات الأقوى علما أو سلطة أو مالا كانت تحجب هذه الطبقات وان كانت تقيم حياتها العامة على نشاطاتها.

(٩١) انظر مثلا القلائد ج ١ الصفحات ٢٦٩ - ٢٧١ وانظر في تفصيل أسر الصالحية واسمائها المروج

ونستطيع أن نذكر من الحرفيين وأهل الخدمات والاسواق : صانعي الورق «فالورق للصالحية - كما يقول ابن طولون - ولا يصنع الا بها . ومنها يجلب الى سائر الدنيا..» ولعل لا تساع العمل العلمى في الصالحية أثره في نقل هذه الصناعة من دمشق اليها . وهناك في أقصى غرب الصالحية على الجبل حارة الفواخير (أى صنع أدوات الفخار وكانت في مكانها نفسه حتى عهد قريب)، وفي الأسواق سوق للمقتانين وسوق للفاكهة وبعض المعاصر والخانات ومنها خان السبيل، وأما المكارون فكان موقعهم في شرق الصالحية على رأس الطريق المؤدية الى حي العقبية وباب الفراديس في دمشق . (٩٢).

ويجب أن نضيف أخيرا الى هذا وجود طبقة واسعة في الصالحية من الزهاد والصوفية والمعتكفين في الزوايا والأربطة يعيشون على هامش العملية الانتاجية وعملهم الاساسى هو العبادة ويتبعهم أعداد واسعة من الفقراء والمتزهدين والعاطلين الذين يعيشون على فتات الموارد الوقفية .

و يبدو واضحا بعد هذا كله ان هذا البلد الجديد قام وظل يقوم في ثروته العامة لاعلى انتاجه المحلى (فهو - باستثناء الورق - انتاج محدود ببعض الخضار والفواكه والورود والقليل من الحبوب ولايقوم أبدا بحاجات الجماعة الساكنة)، ولكن على ماكان يرد الصالحية ويتدفق فيها من أموال الهبات والهدايا والنفقات للبناء من ريع الأوقاف الكثيرة الموقوفة على مؤسساتها الدينية والعلمية والصوفية فالبلد كان منذ تأسيسه الأول على يد آل قدامة، وظل بعد ذلك معهم ومع من انضاف اليهم فيه، ذا اقتصاد طفيف مستعار وهو يتفرد بهذا دون الضواحي والأرباض الأخرى المماثلة له حول دمشق كالمرزة وداريا فقد كانت لهذه القرى الواسعة أراضيها الزراعية التي تقوم باقتصادها ولم يكن فيها من المؤسسات

(٩٢) انظر في ذلك كله بالترتيب، القلائد ١ ص ٣٧٦ ثم ابن عبد الهادي - ثمار المقاصد ص ١٥٧ و ١٥٨ و ص ١٤٥ ورسالة الحمامات (في المشرق) ص ٤١٦ ثم ثمار المقاصد ص ١٥٦ و ص ١٥٧ وأخيراً النعيمي - الدارس ٢/٢٤٥. وانظر في الصناعات بدمشق رسالة (الحسبة) لابن عبد الهادي المنشورة في المشرق المجلد ص ٣٨٤ - ٣٩٠.

والنشاطات والتكاثر الديموغرافي ما تحتاج معه إلى التمويل الخارجي.

وقد دخلت الصالحية، مبكرة، على ما يظهر في النظام السياسي العام للدولة وبلغ من شأنها أن كان حاكمها، في أواخر العهد المملوكي يحمل رتبة «داواداور السلطان» وهي إحدى الرتب الكبرى السبع في السلطنة. وكان للصالحية كذلك وال ولها محتسب ولدينا بعض أسماء هؤلاء وأولئك من المتأخرين. وكان في الصالحية «محكمة فيها نحو ثلاثين قاضياً من المذاهب الأربعة» كما كان ثمة جهاز للحراسة الليلية في محلات البلدة «وكان لكل محلة من هذه المحلات رئيس يحرسها (مع) العسس يسهرون الليل.. خوفاً من مؤذ أو عدو..» (٩٣).

٥ (آل قدامة والصالحية المملوكية :

تواريخ الأسر، سواء كانت هذه الأسر سياسية أم تجارية أم علمية تتشابه في ظاهرة واحدة هي ذلك الخط البياني الذي يتصاعد مع الجيل المؤسس نشاطاً وجهداً وتمكيناً وتكوين رصيد معنوي أو مادي أو كليهما ثم يعتدل الخط ويستقر ويمشي في اتجاه أفقى متمائل فترة تطول أو تقصر ثم يبدأ الخط بالهبوط التدريجي أو السريع وتعيش الأسرة على أمجادها السابقة قبل أن تنطفئ شمعته الأخيرة. وأسرة آل قدامة دخلت عصر المماليك وهي أسرة كبرى من أسر العلم. كان وراءها مائة سنة من الجهد وسهر الليل والأسماء اللامعة والصعود لذلك كان همها في المرحلة التالية المحافظة على القمة التي وصلتها وعلى المواقع التي كسبتها..

وإذا نحن تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وهي أن آل قدامة الأوائل الذين ظهروا في مابين القرنين السادس والسابع كانوا أكثر شهرة بسعة العلم وبكثرة المؤلفات وبعمق التدين والزهد حتى نسبت إليهم الكرامات بينما صارت

(٩٣) انظر القلائد ج ١ ص ٢٧٢ وص ٢٧١ وص ٢٦٨ وانظر أيضاً المروج ص ٣٥.

والنشاطات والتكاثر الديموغرافي ما تحتاج معه إلى التمويل الخارجي.

وقد دخلت الصالحية، مبكرة، على ما يظهر في النظام السياسي العام للدولة وبلغ من شأنها أن كان حاكمها، في أواخر العهد المملوكي يحمل رتبة «داوادر السلطان» وهي إحدى الرتب الكبرى السبع في السلطنة. وكان للصالحية كذلك وال ولها محتسب ولدينا بعض أسماء هؤلاء وأولئك من المتأخرين. وكان في الصالحية «محكمة فيها نحو ثلاثين قاضياً من المذاهب الأربعة» كما كان ثمة جهاز للحراسة الليلية في محلات البلدة «وكان لكل محلة من هذه المحلات رئيس يحرسها (مع) العسس يسهرون الليل.. خوفاً من مؤذ أو عدو..» (٩٣).

٥ (آل قدامة والصالحية المملوكية :

تواريخ الأسر، سواء كانت هذه الأسر سياسية أم تجارية أم علمية تتشابه في ظاهرة واحدة هي ذلك الخط البياني الذي يتصاعد مع الجيل المؤسس نشاطاً وجهداً وتمكيناً وتكوين رصيد معنوي أو مادي أو كليهما ثم يعتدل الخط ويستقر ويمشي في اتجاه أفقى متماثل فترة تطول أو تقصر ثم يبدأ الخط بالهبوط التدريجي أو السريع وتعيش الأسرة على أمجادها السابقة قبل أن تنطفئ شمعته الأخيرة. وأسرة آل قدامة دخلت عصر المماليك وهي أسرة كبرى من أسر العلم. كان وراءها مائة سنة من الجهد وسهر الليل والأسماء اللامعة والصعود لذلك كان همها في المرحلة التالية المحافظة على القمة التي وصلتها وعلى المواقع التي كسبتها..

وإذا نحن تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وهي أن آل قدامة الأوائل الذين ظهروا في مابين القرنين السادس والسابع كانوا أكثر شهرة بسعة العلم وبكثرة المؤلفات وبعمق التدين والزهد حتى نسبت إليهم الكرامات بينما صارت

(٩٣) انظر القلائد ج ١ ص ٢٧٢ وص ٢٧١ وص ٢٦٨ وانظر أيضاً المروج ص ٣٥.

الدراسة الدينية والتدريس عند الأجيال التالية من رجال الأسرة وأقربائها مهنة من المهن للعيش المحترم وتحولوا الى الشهرة بالوظائف الدينية الكبرى وتولى القضاء والمشايخ ونظارة الأوقاف والخطابة والتدريس بالمدارس وحل الألقاب الضخمة وضعفت نشاطاتهم في التأليف وتظللوا بكرامات أجدادهم السابقين حتى صار كل هم فروع الأسرة تخريج الشيوخ الموظفين قرابة قرنين.. اذا تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وجدنا في تاريخ الأسرة المقدسية عددا من الملامح المميزة :

(١) لم تكن هجرة الشيخ أحمد الاول مع أهله هي التي كونت جبهة المقداسة في الصالحية. ولا كانت الهجرة الوحيدة. والواقع ان الهجرة من منطقة الجماعيليات الى صالحية دمشق استمرت بأعداد قليلة ولكنها مستمرة خلال كل تلك الفترة التي نمت فيها مكانة الأسرة ونمت معها الصالحية مابين القرنين السادس والسابع. كان ثمة دون انقطاع خط متصل دائم من المهاجرين يتحرك مابين نابلس ودمشق وبالعكس. وكان بعض هؤلاء يأتي لطلب العلم والعودة وهم الأقلون. أما الكثير منهم فكان يأتي للاستقرار أو كان ينجذب الى الجو الصالحى المفعم بالعلم والحيوية والاحترام وامكان المعيشة الحسنة وكان بالنتيجة يستقر ويستدعى بالتدريج أهله وبنى لهم البيت والحارة والمسجد الخاص. ولم يؤثر تحرير فلسطين وبيت المقدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ على هذه الهجرة، لافي دفع المهاجرين السابقين الى العودة لأراضيهم ولا في ايقاف حركة اللاحقين. ولعل السبب هو أن المجموعة المقدسية وجدت في مستقرها الجديد جوا من المعيشة أفضل، في الوقت الذي وجدت فيه لحياتها هدفاً أجلاً وأسمى. لم تعد حرائة الأرض تغريهم مادامت حرائة الكتب بالعيون خير عند ربك جزاء وأفضل منقلباً دنيا وديناً. كما كان مابلغه السابقون من المكانة في الجاه والبسطة في العيش اكبر اغراء ينادي اللاحقين. ولم يكن القداميون ليرفضوا هذا ان لم يكونوا بالعكس يشجعونه لأنه قوة لهم وبرهان على نجاح رسالتهم الدينية. وهكذا انتقل وظل ينتقل بالتدريج مجتمع قروى كامل من تلك البقاع الفلسطينية (الجماعينات) الى سفح قاسيون بدمشق و يتحول على ذلك السفح من العمل الزراعي الى النشاط

العلمي .

(٢) نتيجة لهذه الملاحظة السابقة نجد أن آل قدامة لم يكونوا وحدهم في ذلك الجهد العلمي الطويل الذي تحقق في الصالحية خلال عدة مئات من السنين. ولكن مجموعة من الأسر الحنبلية القريبة لهم في جماعيل وماحولها قد شاركت في ذلك الجهد وبرز منها، كما برز من آل قدامة، وبتأثيرهم وتحت رايته، عدد من العلماء يرتبطون مع الأسرة القدامية — الأم بالروابط العائلية المتفاوتة وقد حملوا مثلهم لقب المقدسة وتكون من هؤلاء وأولئك ومن التحق بهم أيضا من بيت المقدس نفسها جماعة علمية قوية واسعة النشاط سواء في عدد رجالها البارزين أو في كثرة وتنوع أعمالها العلمية والدينية والحكومية وأبرز تلك الأسر خمس أو ست : ثلاث منها لصيقة بآل قدامة :

الأولى : آل عبدالمهادي وجدهم يوسف بن محمد بن قدامة هو شقيق الشيخ أحمد المهاجر الأول لدمشق .

الثانية : بنو سرور بن رافع الجماعيلي و يرتبطون مع آل قدامة برابطة المصاهرة.
الثالثة : بنو عبد الواحد بن أحمد السعدى وهم بدورهم أصهار في آل قدامة .
وهناك ثلاث أسر أخرى ترتبط مع آل قدامة بروابط عائلية محدودة ولكنها كانت جزءا من الكوكبة المقدسية في الصالحية هي : أسرة المرداوى وأسرة راجع وأخيرا الأسرة التي برزت في القرن الثامن : بنو مفلح الراميني .

(٣) لم يقف تأثير آل قدامة على موقعهم في الصالحية ولكنه انعكس أيضا على موطنهم الأصلي في نوع من رد الفعل العائد. وإذا كانت جماعيل قرية صغيرة فقد تبادل آل قدامة التأثير والتأثير مع عاصمة المنطقة الفلسطينية نفسها : نابلس . وظهر للأسرة القدامية فرع نابلسي، مشى على خط آل قدامة العلمي في الصالحية وتعاون معهم التعاون المستمر. وأطلع كما أطلعوا مجموعة من العلماء والشيخوخ والقضاة أقامت المركز العلمي الحنبلي - القدامى في نابلس .

وهذا الفرع النابلسي كان من آل سرور بن رافع بن حسن الجماعيلي

وبينما هاجر عبدالواحد بن علي بن سرور، صهر آل قدامة معهم الى دمشق بقى ابن عمه نعمة بن سلطان في بلده وأطلعت أسرة ابنه عبدالمنعم بن نعمة مجموعة علماء وقضاة نابلس في القرنين السادس والسابع ومن هؤلاء جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن عبدالمنعم (ولد وتوفي في نابلس ٥٩٤ - ٦٥٦) (٩٤) وأخوه من قبله يوسف تقي الدين (٥٨٦ - ٦٣٨) وشمس الدين عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبدالمنعم إمام نابلس سبعين سنة (توفي سنة ٧٣٧) وأحمد بن عبدالرحمن بن عبدالمنعم (الذي توفي بدمشق سنة ٦٩٧) مفسر الأحلام والرؤيا. وإبراهيم بن عبدالرحمن المفتي نابلس (توفي سنة ٧٣٧) وغيرهم كثير.

(٤) لم تقتصر الهجرة على الأسرة القدامية وأقربائها وأهل القرى في منطقة نابلس وغيرها ولكنها اجتذبت أيضا العديد من أهل المدن الفلسطينية المختلفة من نابلس والقدس خاصة (من أمثال عبدالدائم النابلسي المتوفى سنة ٦٦٦ واسماعيل بن ظفر المنذرى المتوفى سنة ٦٣٩ وعبدالرحمن بن احمد بن مفلح المقدسى المتوفى سنة ٦٨٩) ومن عسقلان وصفد والخليل والرامة وغيرها وقد تكاثروا بوضوح في الصالحية خلال القرن السابع وظهر منهم العلماء والمحدثون البارزون .

كما اجتذب آل قدامة أيضا بحركتهم العلمية النشطة وسمعتهم الدينية علماء الحنابلة وطلاب المذهب من بغداد خاصة ومن حران واربل وبالس وأخلاط وغيرها فجاءوها وشاركوا في نشاطات المركز الحنبلي الصالحى وفي سمعته العلمية. ولعل من أبرز هؤلاء ابن تيمية (أحمد عبدالرحيم ٦٦١ - ٧٢٨) المجتهد المشهور والحسين ابن المبارك الربعى البغدادى المسند (المتوفى سنة ٦٣١) وإبراهيم بن على الواسطى مسند الوقت (المتوفى سنة ٦٩٢) واسماعيل بن محمد الفراء (سنة ٧٢٩) وبدر الدين محمد البطائحي (سنة ٧٢٦) وابن رجب أحمد البغدادى الامام

(٩٤) أنظر ترجمة لدى شذرات ٢٧٨/٥ والذهبي - تذكرة الحفاظ (ط . حيدرآباد) ج ٤ ص ٢٣٣ وأنظر ترجمة أخيه لدى ابن رجب ٢٢١/٢ .

المقرئ المحدث (توفي سنة ٧٧٤) (١٥).

واجتذب آل قدامة الى هذا وذاك كبار علماء المذاهب الأخرى وبخاصة الشافعية وقد أتى الصاحبة العديد منهم: من أمثال الحافظ العراقي (عبدالرحيم بن الحسين المتوفى سنة ٨٠٦) والذهبي (محمد بن احمد) المتوفى سنة ٧٤٨) المؤرخ المشهور وابن الزكي (يوسف بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٧٤٢) حافظ الوقت وابن فهد المكي (عمر بن محمد المتوفى سنة ٨٨٥) وابن حجر العسقلاني (احمد بن علي المتوفى سنة ٨٥٢) خاتمة الحفاظ الكبار وابن الجزري والتستري كما توافد اليهم جمع من الزهاد وأهل التصوف. وإذا كان أبرز المتصوفة الوافدين هو محي الدين بن عربي الصوفي المشهور (المتوفى سنة ٦٣٦) وعلى قبره هناك جامع معروف باسمه فان مشايخ الطرق الصوفية الشعبية لم يكونوا أقل شأنًا وخطراً ومنهم اليونيني (عبدالله بن عثمان المتوفى سنة ٦١٧) وكانوا يسمونه أسد الشام لقوته وزهده. وأبوبكر بن فتيان المعروف بعروذك (توفي سنة ٦٧٢) وابن قوام (ابو بكر بن قوام بن علي البالسي المتوفى سنة ٦٥٨) وغيرهم ممن زحرت بزواياهم أزقة الحى وحاراته الى اليوم (١٦).

٥) اهتم آل قدامة ومن عمل معهم في مركز الصاحبة العلمى بدراسة ونشر المذهب الحنبلى. الا ان عملهم لهذا المذهب عدة قرون كان يستند دوماً، وحسب السنة التعليمية المتبعة يومذاك، الى قاعدة واسعة من دراسة العلوم الدينية واللغوية المختلفة وقد عملوا عليها جميعاً وبرزوا في الكثير منها. واستعراض الاهتمامات التي شغلتهم تبين أنها كانت كلها ضمن هذا الاطار. فقد عملوا في تلقين القرآن الكريم وفي القراءات والتفسير كما اهتموا جميعاً كل الاهتمام بالحديث النبوى وحفظه متناً وسنداً وبدراسة صحيحه وضعيفه وغريبه ومشكله ومعانيه وكان من

(٩٥) أنظر في ترجمة المبارك: شذرات ١٤٤/٥. والواسطى - الدارس ٨٢/٢، وللغراء: شذرات ٨٩/٦ وابن رجب: شذرات ٢٣٠/٦.

(٩٦) أنظر في ترجمة اليونيني شذرات ٧٣/٥ - ٧٤ وترجمة عروذك: القلائد ٤٠٥/٢ و ٤٠٧ ولابن قوام: شذرات ٢٩٥/٥.

همومهم معرفة رجال الحديث في اسمائهم والكنى والأعمار والنسب وفي الجرح والتعديل. وكان من لوازم هذا كله دراسة اللغة والنحو والشعر والأنساب فعملوا على ذلك. واستنادا الى هذه العلوم ونتيجة لها جاء بروزهم في الفقه والأصول والفروع والخلاف والمناظرة فمنهم أعداد كبيرة من القضاة.. واستتبع هذا أن بعضهم برز أيضا في قضايا الارث فكان منهم أكثر من فرضى بارع ومن حاسب وعارف بالجبر والمقابلة. وبعضهم كذلك نظم الشعر وعمل في التعبير وتفسير الاحلام وبعضهم (مثل الموفق) برع في الحساب والنجوم والمنازل.

(٦) وجميع هؤلاء المقادسة عملوا في التدريس، في مدارسهم ومساجدهم بالصالحية وفي غيرها من مدارس وجوامع الأمصار بدمشق والقاهرة والاسكندرية وفي بغداد ونيسابور واربل والموصل والحرمين وابلس وبلبك وتدمر والرحبة والحديثة وازرع ودوما وبعضهم ظل يدرس نصف قرن (كأبي عمر) وبعضهم ظل يحدث ستين سنة (مثل شمس الدين عبدالرحمن بن محمد بن قدامة) ومثل فخر الدين علي بن أحمد السعدى) (٩٧) كما عمل الكثير في القضاء والفتوى وبخاصة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة. وبعضهم ظل يفتى نيفا وخسين سنة (مثل تقي الدين سليمان القدامى) (٩٨).

(٧) ومعظم هؤلاء المقادسة عملوا في التأليف. وقد توجهت مؤلفاتهم بخاصة الى الحديث النبوى في الدرجة الأولى والى مايتصل به ثم الى الفقه الحنبلى فكتبهم فيه هى اليوم من كتب المذهب الأساسية والى كتب الفضائل والمناقب، فضائل المدن والأشخاص والأعمال، ومناقب الصحابة وكرامات الزهاد والأولياء. وأخيرا الى المواضيع الدينية في الاعتقاد والتفسير والزهد وفي الانساب وفي المسائل الشرعية التفصيلية. وفيهم عدد من الشيوخ وصلت مؤلفاتهم الى خمسين وستين كتابا (مثل عبدالغنى المقدسى وشمس الدين محمد بن أحمد بن

(٩٧) ابن رجب — ذيل طبقات ٣٠٥/٢ و ٣٢٥/٢.

(٩٨) المصدر السابق ٣٦٥/٢.

عبدالهادي) (٩٩) وقد «عد ابن رجب في الطبقات لشمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي المتوفى سنة ٧٤٤ سبعين مصنفًا يبلغ التام منها — كما قال — ما يزيد على مائة مجلد...» (١٠٠). وقد سجل الجمال ابن عبدالهادي قائمة مؤلفاته بنفسه فبلغت ٦٠٠ مؤلف .

(٨) واهتم المقادسة بالكتب وانشاء المكتبات لأنفسهم ومؤسساتهم فالكثير منهم يذكر في ترجمته أنه حصل الكتب الحسنة وأنه عمل في كتابتها وفي الاستنساخ وتحصيل الأصول. وبعض ثروة المكتبة الظاهرية في دمشق اليوم في المخطوطات آتية من الكتب التي كان وقفها الضياء المقدسي على مدرسته ووقفها الآخرون على المدرسة العمرية. ومثله في ذلك الجمال ابن عبدالهادي آخر الممثلين الكبار للأسرة (توفى سنة ٩٠٩) فقد وهب مكتبته التي تزيد على خمسة الآف كتاب للمدرسة نفسها.

(٩) ولايكاد يوجد في هؤلاء المقادسة من لم يسافر في طلب العلم على كبار الشيوخ والحفاظ والمسندين. وبعضهم كان يطيل في الرحلة ويبعد فيها وقد امتدت أسفارهم الى أصبهان ومرو ونيسابور وبخارى وهراة والى بغداد واربيل والموصل وحلب وحران والى الحرمين للدراسة والحج وبخاصة الى مصر والاسكندرية ودمياط حتى ان بعضهم استقر في القاهرة وبعضهم صار قاضيا للقضاة وشيخا للشيوخ فيها رغم حنبلية وشافعية الناس (١٠١) (كمحمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المتوفى ٦٧٦ / ٢٧٧) وقد بالغ بعضهم في السماع على الشيوخ والرحلة اليهم حتى بلغ عدد شيوخه عدة مئات وبعضهم زاد على ٥٠٠ أو ٧٠٠ شيخ (كضياء الدين المقدسي وتقى الدين سليمان القدامى) (١٠٢) وبعضهم

(٩٩) القلائد ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١ وص ٣١٤ - ٣١٥ وابن رجب - ذيل الطبقات ١٨/٢ - ١٩ و ٤٣٧ - ٤٣٨.

(١٠٠) شذرات ١٤١/٦ وابن العماد نقل النص عن الذهبي ولم نجد النص في ابن رجب وله ترجمة في تذكرة الحفاظ للذهبي ١٥٠٨/٤.

(١٠١) ابن رجب - ذيل الطبقات ٢/٢٩٤.

(١٠٢) المصدر السابق ٢/٢٣٧ و ٣٦٥ والدارس ٢/٣٦.

بلغ أيضا ألف شيخ مثل عبدالله بن أحمد المقدسى (١٠٣).

(١٠) وكما كانوا يسافرون ويحرضون أبناءهم وتلاميذهم على الرحلة العلمية في الآفاق كانت الرحلة اليهم بالمقابل لأخذ العلم عنهم ودراسة مذهب ابن حنبل عليهم ناشطة واسعة ولاسيما في القرنين السابع والثامن للهجرة. وكان طلب العلم في الصالحية يعنى بصورة أساسية طلبه عليهم وأخذ المذهب الحنبل عنهم فقد كان للمذاهب الأخرى (الحنفية والشافعية) أعلامها الكبار في مختلف أمصار الاسلام وبخاصة في دمشق والقاهرة مما يغنى عن الرحلة لدراستها في الصالحية وقد بلغ بعضهم من العمر الطويل ما صار معه «مسند عصره» و«رحلة الدنيا» مثل عائشة بنت شمس الدين محمد (من آل عبد الهادي) (١٠٤) ومثل «فخر الدين على السعدى الذى هرع اليه طالبو الحديث من أنحاء الدنيا يطلبون علو الاسناد لأنه «كان آخر من كان في الدنيا بينه وبين النبى (ص) ثمانية رجال ثقات» (١٠٥) يعنى في السماع المتصل ومثل صلاح الدين محمد بن أحمد حفيد أبى عمر الذى صار «مسند الدنيا ورحلة عصره» وآخر من كان بينه وبين النبى (ص) تسعة رجال ثقات» قبل أن يتوفى سنة ٧٨٠ / (١٠٦) ومن هذه الجماعة كذلك شهاب الدين المقدسى المتوفى سنة ٧١٠ الذى كان «مسند الشام» في عصره (١٠٧) أى الوحيد في علو الاسناد في الشام .

(١١) شملت الحماسة العلمية أيضا نساء البيت القدامى، حريم المقداسة، فأدخلتهن في الجوالعام لعلوم القرآن والقراءات والحديث والفقہ. وقد سمعن على العديد من أقاربهن الشيوخ وعلى غيرهم كما سمع عليهن عدد من كبار علماء

(١٠٣) القلائد ج ٢ ٢٧٩ وابن رجب — ذيل طبقات ٤٢٦/٢ — ٤٢٧.

(١٠٤) القلائد ج ٢ ٢٨٧.

(١٠٥) ابن رجب ٣٢٨/٢ نقلا عن الذهبي.

(١٠٦) القلائد ٢٩٤/٢.

العصر وسجلت اسماؤهن في معاجم الشيوخ وفي كتب التراجم والطبقات وبرز بعضهن بروزا سامتن فيه أو سبقن الكثير من رجال المقادسة أنفسهم ومن غيرهم. والجو العلمى والاجتماعي العام في ذلك العصر كان مألوفاً فيه وجود عالمات وشيخات يروين الحديث عدا الشاعرات والكاتبات، كما كان مألوفاً اسماعهن والسماع عليهن وقد ألف ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١هـ) والذي عاصر هجرة المقادسة الى دمشق وتوطنهم في الصالحية، «كتاباً في من سمع منه من النسوان» (وكن نيفاً وثمانين شيخاً وبعد قرن ونيف من ذلك كتب فخر الدين على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسى مشيخة في كتاب (أسنى المقاصد وأعذب الموارد) وذكر في الجزء العاشر خمساً وعشرين شيخاً بين مشايخه (١٠٨) وقد حملت الشيخات الألقاب كالرجال في ذلك العصر ولكن كانت لهن ألقابهن المغايرة من ست الناس الى ست العراق الى ست البهاء الى جمال النساء الى ست العرب وأمة اللطيف وست الفقهاء وست العمائم.. ولو استعرضنا كتب التراجم في القرن السابع والثامن مثلاً لوجدنا أسماء حوالى ٢٥ سيدة دمشقية من حوالى ٧٠ من العالمات اللواتى فرضن اسماءهن على أصحاب تلك الكتب. الا اننا نلاحظ ان الحنبليات منهن كن اكثر عدداً بوضوح من الشافقيات. أما الحنفيات فأقل من الجماعتين. ونلاحظ أيضاً أن سيدات الأسرة القدامية هن الغالبات أيضاً بين الحنبليات، اللواتى كان منهن: رقية ورابعة ابنتا الشيخ أحمد وحبيبة بنت أبى عمر» (١٠٩) وآسية (أخت ضياء الدين) بنت عبد الواحد بن أحمد المقدسى المتوفاة سنة ٦٤٠هـ وكانت لا تكاد تدع قيام الليل» وسعيدة بنت عبد الملك من آل قدامة وكانت راوية للحديث (توفيت سنة ٦٤٠هـ) وهديّة بنت عبد الحميد المقدسية التى

(١٠٧) النعمي - الدارس ٣٨/٢.

(١٠٨) انظر على بن بلبان المقدسى: تخريج مشيخة الشيخ.. فخر الدين على بن أحمد.. مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم (٢٤٨) حديث ورقة (٣٩) وقال بعد البسطة: ذكر ما تيسر جمعة من مشيخة النساء سماعاً واجازة الشيخة الأولى.. ست الكتبة (التي توفيت سنة ٦٠٤هـ) ..

الشيخة الثانية أم الفضل زينب.. وهكذا حتى الخامسة والعشرين..

(١٠٩) الشيخات الثلاث جاء ذكرهن في المخطوط السابق وفي غيره.

روت صحيح البخارى عن ابن الزبيدى (توفيت سنة ٦٩٩) (١١٠) وخديجة بنت محمد بن ابراهيم بن عبدالواحد (المتوفاة سنة ٦٩٥) وعائشة بنت عيسى بن الموفق (توفيت سنة ٦٠٧) وخديجة بنت محمد بن محمود بن عبدالمنعم المسندة (العابدة) وهى بنت حبيبة (توفيت سنة ٦٩٩) (١١١) وهديّة بنت عبدالرحمن بن أحمد المسندة المعروفة باسم قضاة (توفيت سنة ٧٩٨) (١١٢) وست العرب بنت محمد بن فخر الدين الصالحية، المسندة المكثرة (المتوفاة سنة ٧٦٧) والأختان فاطمة وعائشة ابنتا محمد بن عبدالهادى (توفيت الأولى سنة ٨٠٣ والثانية سنة ٨١٦ وكانت قبل سنوات من وفاتها مسندة الدنيا ورحلة الدنيا) (١١٣) غير أن هذه الأسماء تغيب في بقية القرن التاسع مع المغيب التدريجي لأسماء الأسرة .

(١٢) لم يكن العلم هو الميزة الوحيدة التي أعطت آل قدامة مكانتهم وسمحت لهم بالبروز الواضح في المجتمع الشامي والاسلامى ولكن التدين العميق كان الميزة الأولى والاقوى. الورع كان أول الجناحين اللذين حملاهم وكان العلم الجناح الآخر. الانصراف الى الله كان «الصخرة» التي أقامت عليها الأجيال الأولى من المقادسة سمعة الأسرة وأتى العلم ليكون الصخرة الأخرى. وقد تمثل ذلك التدين في أمرين: المبالغة في العبادة والمبالغة في الزهد ورفض الدنيا. وتقرأ في تراجم الأوائل منهم أن عبدالغنى تقى الدين يصلى ثلاثمائة ركعة الى قبل وقت الظهر ويقوم نصف الليل فما يزال يتوضأ ويقرأ ويبكى الى الصبح. (١١٤) وأن أبا عمر محمد كان كثير الصيام سفرا وحضرا وأنه في آخر عمره سرد الصوم وكان يقرأ في الصلاة كل ليلة سبعا مرتلا ويقرأ جزءين من القرآن في الصلاة ويسجد سجدين طويلتين ويصلى في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة نافلة ويصلى

(١١٠) شذرات الذهب ٥/٢٠٧/٢٠٨/٥٤ بالترتيب.

(١١١) انظر القلائد ٢/٣٠٧/٣٠٦/٣٠٦ بالترتيب.

(١١٢) ابن العماد — شذرات ٦/١٨٦.

(١١٣) القلائد ج ٢ ص ٣٠٧/٢٨٧ بالترتيب.

(١١٤) ابن رجب ٢/١٢ وسيط ابن الجوزي — مرآة الزمان (ط . حيدرآباد سنة ١٩٥٢) ج ٨ قسم ٢

ص ٥٢١ والقلائد ٢/٣٣٧.

الضحى و يقرأ قل هو الله أحد ألف مرة (١١٥) و ابراهيم بن عبد الواحد (شقيق عبد الغنى) كان يطيل الركوع والسجود و يكثر من قضاء الصلوات وربما قضى الصلاة الواحدة عن مائة سنة و كان يصوم يوما و يفطر يوماً و يكثر من الدعاء بالليل والنهار (١١٦) و أن الموفق عبد الله بن الشيخ أحمد كان «كثير العبادة دائم التهجد. لم ير مثله ولم ير مثل نفسه» (١١٧) و أن شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر «سريع الدمعة، كثير الذكر لله والقيام بالليل و يصلى بين العشاءين.. كثير الدعاء والابتهاال..» (١١٨) و لم تكن نساؤهم بأقل من الرجال في هذا كله فهذه آسية أخت ضياء الدين التي لا تكاد تدع قيام الليل وتلك الزاهدة حبيبة وثالثة هى خديجة المسندة العابدة الكثيرة التلاوة وهكذا. ونسمع من جهة أخرى عن هؤلاء وأهلهم مبالغتهم في احتقار الدنيا. وأبو عمر كان يبقى في الشتاء بجبة بغير قميص، يلبس الخشن و ينام على الحصير، «وأنه لم يخلف دينارا ولا درهما ولا قليلا ولا كثيرا» (١١٩) و أن شمس الدين محمد بن عبد الرحيم كان متقللا من الدنيا.. و كان يحفر مكانا في الجبل لبعض شأنه فوجد جرة مملوءة دنانير وكانت زوجته معه تعينه في الحفر فاسترجع وطم المكان كما كان و قال لزوجته هذه فتنة ولعل لها مستحقين لانعرفهم وعاهدها على أنها لا تشعر بذلك أحداً ولا تتعرض اليه..» (١٢٠) و يذكرون عن غير هذا وذاك صفات تجعل من هذه المجموعة جيلا خاصا من الناس ليس كمثله جيل في اقامة الدين والقرب من الله .

وقد نجم عن ذلك أن «المقادة» أضحووا في اعتقاد الناس نماذج «دينية عليا» ونجد أصداء هذا الاعتقاد وصوره في عدد من المظاهر: فاذا نحن تجاوزنا الطريقة التبجيلية التي صيغت فيها تراجمهم في كتب التراجم والتي تعكس حتى

(١١٥) أنظر سبط ابن الجوزي — مرآة ج ٨ ص ٥٤٧ وابن رجب ٥٣/٢ — ٥٤.

(١١٦) ابن رجب ٩٩/٢.

(١١٧) ابن رجب ١٣٤/٢ وانظر القلائد ٣٤١/٢.

(١١٨) المصدر نفسه ٣٠٦/٣٠٥.

(١١٩) ابن رجب ٥٤/٢ و ٦٠ وسبط ابن الجوزي — مرآة الزمان ج ٢ قسم ٢ ص ٥٤٨ و ٥٥١.

(١٢٠) المصدر نفسه ٣٢١/٢ والنعمى — الدارس ٩٦/٢.

مواقف زملائهم العلماء منهم فانا نجد أن جاهير الناس والحكام قد عبروا عن نظرتهم اليهم :

أولا : بالأوقاف التي كانوا يوقفونها على دروسهم ومؤسستهم وقد ذكر ابن عبد الهادي أنه : «قل سنة من السنين تمضي (على المدرسة العمرية) الا ويصير اليها فيها وقف. فوقفها لا يمكن حصرة» (١٢١) ومثل ذلك المدرسة الضيائية ودير الحنابلة والجامع المظفرى .

ثانيا : في تشييع جنازتهم فقد كانت مواكب تاريخية سجلها المؤرخون على أنها ظاهرات خاصة تلفت الأنظار في عدد المشيعين أو نوعيتهم (فهم يضمون الأمراء والأئمة والشيخ مع الخلق الكثير) أو في اقتتال الناس على الظفر بماء التغسيل أو قطعة من الكفن للبركة :

فحين مات مثلاً أبو عمر «من وصل الى الماء الذى غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة والعلماء والأعيان وعامة الخلق وكان يوما مشهودا .. وكان يوما شديد الحر فأقبلت غمامة فأظلت الناس الى قبره وكان يسمع منها دوى كدوى النحل ولولا المبارز المعتمد والشجاع بن محارب وشبل الدولة الحسامى (قواد الجند) ما وصل الى قبره من كفنه شيء وأما أحاطوا به بالسيوف والدبابيس .. وحزر من حضر جنازته فكانوا عشرين ألفا ..» (١٢٢) وحين توفي عماد الدين ابراهيم بن عبد الواحد سنة ٦١٤ قال سبط ابن الجوزى «أخرجت جنازته الى جامع دمشق (الأموى) فما وسع الناس الجامع .. وكان يوما لم ير الاسلام مثله. كان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل الى الكهف وآخرهم بباب الفراديس (١٢٣) ولولا المبارز المعتمد وأصحابه لقطعوا أكفانه وما وصل الى الجبل الى آخر

(١٢١) النعمي — الدارس ج ٢ ص ١١١.

(١٢٢) ابن رجب — ٦٠/٢ وسبط ابن الجوزي ٥٥١/٢ — ٥٥٢.

(١٢٣) أحد أبواب دمشق من جهة الشمال و يواجه الصالحية والمقصود أن موكب الجنازة كان يبلغ حوالي ثلاثة كيلومترات.

النهار وتأملت الناس من أعلى قاسيون الى الكهف الى قريب الميطور
لورمى الانسان عليهم الابرة لما ضاعت...» (١٢٤) وتتعدد مثل هذه الصور
الجناثزية لعدد من شيوخ المقدسة الآخرين وشيخاتهم (١٢٥).

ثالثا : تصعيد الاحترام لهم لدرجة رؤية الناس الاحلام والمنامات عن جيل
مقامهم في الآخرة ولدرجة نسبة الكرامات الخارقة اليهم. وتقرأ في
التراجم قصصا عديدة من خوارقهم ومكاشفاتهم (١٢٦).
وبعضهم صار عند الناس بل الشيوخ قطب الوقت «ومن العلماء
الربانيين» «وبركة العصر» (١٢٧) وأحد أولياء الله .

على أن هذا الجوال الدينى كله أخذ في التبدد بالتدريج بعد الأجيال
الأولى. قلَّ التهجد وقيام الليل وقراءة القرآن والأوراد وقلَّت الكرامات بالطبع
وانما بقى لهم، منذ أواسط القرن السابع، التميز بالعلم الذى ظل دعامة المقدسة
قرنا آخر ثم تضاعف العلم بدوره لبقى لهم جاء «الوظائف الدينية» ومقامها...
قرنا آخر قبل أن ينطفئ في الأسرة تألقها الأخير .

١٣ — ومعظم الأجيال الأولى من آل قدامة كانوا يقرنون العلم بالعمل
ابتغاء الأجر والأسوة الحسنة فلهم مشاركات في الجهاد : مثل ذلك أن أبا

(١٢٤) سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٥٨٨ وابن رجب ١٠٤/٢ وأما المبارك الذى
ورد ذكره مرتين فهو الامير مبارز الدين سنقر الحلبي الصلاحي توفى سنة ٦٢٣ وقد ظل شحنة
دمشق أربعين سنة (انظر ابن كثير — البداية والنهاية ج ١٣/١١٥ — ١١٦) وفي السنة نفسها
توفى شبل الدولة كافور الحسامي (المصدر نفسه).

(١٢٥) انظر في ذلك مثلا ابن رجب ج ٢ الصفحات ١٠٤/٣٠٨/٣٣٤/٣٣٨/٤٢٧/٤٢٧.

(١٢٦) انظر في ذلك سبط ابن الجوزي ٥٤٨/٢ — ٥٥١ و ٦٢٨ — ٦٣٠ وابن رجب ١٦/٢ و ٦٤ و ١٠٠
و ٢٣٥ و ٢٣٧ و ٢٧٨ ... الخ.

والقلائد ج ٢ ص ٤٢٠ — ٤٢٦.

(١٢٧) انظر هذا اللقب لابي عمر ولعبد الغني وضياء الدين ... لدى ابن رجب ٥٨/٢ وص ٥ وص
٢٣٧ و ٣٠٧ و ٣٠٨ ... الخ ولنلاحظ أن هذا الوصف انما يأتي من شيوخ الحنابلة اكثر من
غيرهم.

عمر وأخاه حضرا فتح القدس مع صلاح الدين (١٢٨) و بعضهم حضر معركة دمياط في الحملة الصليبية الخامسة (١٢٩) للوعظ والتحريض على الجهاد و بعضهم ركب الخيل ولبس السلاح مع مشيخته وحضر القتال (مثل القاضي أحمد بن عبد الرحمن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٦٨٩ الذي شهد فتح طرابلس و طرد الصليبيين منها) (١٣٠) كما ذكر عن غير هؤلاء الاشتراك في الجهاد كضياء الدين محمد بن عبد الواحد أو حضور الفتوحات كعبد الرحمن بن محمد شمس الدين وفخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد (١٣١).

وبعض آل قدامة كان يقوم بأعمال الاحتساب لوجه الله فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو أغضب ذلك أولى الأمر مثل تقي الدين عبد الغنى بن عبد الواحد الذي كان لا يرى منكرا الا غيَّره بيده أو لسانه وكثيرا ماشوهد يهرق الخمر و يكسر الشبابات والطناوير (١٣٢) ومثل عماد الدين ابراهيم بن عبد الواحد (شقيق عبد الغنى) الذي خرج مرة على جمع من الفساق فكسر مامعهم فضر به حتى غشى عليه (١٣٣) وأحمد بن عيسى الصالحى و ابراهيم بن عبد الله القدامى وكل منهما كان «أمارا بالمعروف قولا بالحق» (١٣٥).

وتكاد لا ترى ترجمة واحد من هذه الجماعة الا وقد أعطى فيها من الصفات ما يجعله النموذج الدينى — الانسانى للآخرين وتتلخص هذه الصفات في الصدقة وحب الفقراء والخير وفي التواضع واللين والحياء، وفي جميل السيرة

(١٢٨) ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ٥٦/٢

(١٢٩) المصدر السابق ٢ ص ١٨٦.

(١٣٠) المصدر السابق ٣٢٢/٢

(١٣١) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢ ص ٢٣٧ ثم ٣٠٥ ثم ٢٧.

(١٣٢) ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ١٢/٢ — ١٣.

(١٣٣) القلائد ٣٣٦/٢ وابن رجب ذيل الطبقات ٥/٢.

(١٣٤) القلائد ٣٣٩/٢.

(١٣٥) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢٤١/٢ و ٢٧٨.

والمرؤءة وقضاء الحوائج، وفي القناعة والعزوف عن الدنيا،.. (١٣٦) وقد وصف بعض المتأخرين منهم بأنه «العالم القدوة» أو «الزاهد القدوة» (١٣٧) فكأنهم كانوا يجسّدون في ذلك كله مفهوم الدين عندهم، وتطبيق المثل الدينية في الحياة ولعلنا لانسى أن هذا السلوك الحياتي، بصرف النظر عن صدقه، كان أحد العناصر في رأسماهم من السمعة لدى الناس.

١٤ — ويتصل بالأمر السابق ويتفرع عنه موضوع العلاقة بين هذه الأسرة والأسر المتصلة بها من جهة وبين الحكام وزملائهم العلماء من جهة أخرى. وقد كانت هذه العلاقة على الدوام حسنة وطيدة وندر أن تعكرت فلم تأخذ حنبليتهم طريق التعصب الحاد والعداء وتخريض الجموع الذي أخذته المواقف الحنبلية العنيفة في بغداد في القرنين الخامس والسادس. فاذا تجاوزنا مواقف الحسد والزحام على الوظائف التي تعرضوا لها أحيانا كثيرة فأبرز حوادث الخلاف التي وقعوا بها حادثتان: الأولى مشكلة الحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد (المتوفى سنة ٦٠٠/١٢٠٣) الذي تكلم في جامع دمشق في صفات الله وفي القرآن الكريم كلاما رفضه الفقهاء وحلوا الملك المعظم عيسى والصارم برغش والى دمشق على الغاء منبره التدريسي في الجامع فضاق بالأمر ومضى الى بعلبك ثم الى مصر ولكنهم هناك أيضا عادوا فضيقوا عليه ثم كلموا الملك العادل وأكثروا فكتب باخراجه من مصر ولكن الحافظ توفى قبل وصول الكتاب (١٣٨)

وأما الحادثة الثانية فصاحبها هو شمس الدين محمد بن ابراهيم بن

(١٣٦) من الصعب احصاء الصفحات التي تحدثت في صفات المقدسة ويكفى ان نشير الى بعضها في مرجع واحد: انظر مثلاً ابن رجب ذيل الطبقات ٢/الصفحات ٥٢/٩١/٩٢/٩٤/٩٥/٩٧/١٣٤/١٣٥/١٣٧/١٨٥/٢٣١/٢٣٥/٢٩٤/٢٩٥/٣٠٤/٣٠٦/٣١٣/٣١٩/٣٢٦/٣٤٢/٣٤٨/٣٦٥/٤١٩/٤٢٠.
(١٣٧) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢/٤٤١/٤٢٦/٤٢٨.
(١٣٨) المصدر السابق ٢/٢٠ — ٢٦.

عبد الواحد (المتوفى سنة ٦٧٦) وكان قد نزل مصر سنة ٦٤٠ وبلغ فيها منصب قاضى القضاة وشيخ الشيوخ، وكانت تلك أول مرة يتولى فيها حنبلى هذا المنصب في مصر. وقد اتهم في ودائع أودعت عنده كرها ثم أخذت من بيته فاعتقل سنة ٦٧٠ في السجن سنتين ثم أطلق فلزم منزله يفتى و يقرىء حتى توفى. (١٣٩) وبالرغم من أن بعض هؤلاء المقداسة كانوا لا يأبهون للحكام كالذي روه من أن الملك العادل زار الشيخ أبا عمر وجماعة في خيمتهم، عند حصار القدس، وأبو عمر في الصلاة فما قطعها ولا التفت اليه ولا ترك ورده (١٤٠) وبالرغم من أن بعضهم كان منقطعا عن الحكام أو «عزوفاً عن المناصب» أو كان «متواضعا عند العامة مترفعاً عند الملوك» (١٤١) إلا أن الجمهرة من رجال الأسرة كانوا على أحسن الصلات مع مختلف الحكام اعتباراً من نور الدين مروراً بالملوك الأيوبيين وانتهاء بنواب السلطنة المماليك في دمشق كما كانوا على علاقات مرضية بزملائهم شيوخ المذاهب الأخرى وقد سمحت لهم هذه الصلات والعلاقات بأن يتلقوا من جانب السلطات على الدوام، أحسن الاحترام وأجزل الهبات وأن يتولوا أعلى المناصب وأن ينعموا بين هذا وذاك بريع الأوقاف المخصصة لوظائفهم ومنابرهم الحنبلية.. وحتى الرعيل الأول المؤسس رغم تدينه العميق الشديد لم يجد تناقضاً بين ورعه الدينى وبين تقبل سلوك الحكام وهو سلوك لم يكن في أى حال - فيما عدا الجهاد - متفقاً كثيراً مع مبادئ الدين. كان اتفاق العلم والعمل عندهم يقتصر على المستوى الشخصى ولا يتعدى ذلك الى المستوى الاجتماعى والقضايا العامة فلم يتحول الورع الحنبلى المتشدد مرة لمجابهة النظام والفتات الحاكمة وبقي محصوراً في نطاق السلوك الفردى لأصحابه وللناس .

١٥ — نتيجة لهذا كله تعاون آل قدامة ورجال الأسر التى دارت في فلکهم ومنذ العهد الأيوبي مع الطبقات الحاكمة وصاروا جزءاً منها ومن النظام

(١٣٩) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢/٢٩٤.

(١٤٠) المصدر نفسه ٢/٥٦.

(١٤١) المصدر نفسه ٢/١٣٧ و ٣٠٦.

الأيوبي - المملوكى العام. وإذا لم يحفظ لنا التاريخ أسماء من تولوا المناصب الصغرى منهم فقد حفظ الكثيرون ممن تولوا الوظائف العليا. فكان منهم قضاة القضاة وشيوخ الاسلام في الشام خاصة وفي مصر ومن هؤلاء، بعد الرعيل الأول أكثر من عشرة شيوخ. منهم شمس الدين عبدالرحمن بن أبى عمر محمد (توفى سنة ٦٨٢) وابنه شمس الدين أحمد بن عبدالرحمن (المتوفى سنة ٦٨٩) وشرف الدين الحسن بن عبدالله بن أبى عمر (توفى سنة ٦٩٥) وشهاب الدين أحمد بن حسن بن عبدالله بن عبدالغنى (توفى سنة ٧١٠) وتقى الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر (توفى سنة ٧١٥) ثم ابنه عز الدين محمد (توفى سنة ٧٣١) ومحمد بن على بن عبدالرحمن بن محمد (توفى سنة ٨٢٠) ثم أخوه شرف الدين أحمد بن الحسن (١٤٢) (توفى سنة ٧٧١) هذا إذا لم نذكر أيضا بعض أقرباءهم من القضاة المرداوية كقاضى القضاة جمال الدين يوسف بن محمد المرداوى (١٤٣) (توفى سنة ٧٦٩) .

وثمة غير هؤلاء أعداد ممن تولوا القضاء (على المذهب الحنبلى دوما) والذين تصدروا للفتوى أو جلسوا للتدريس في مختلف المدارس في دمشق والقدس والقاهرة ونابلس وبلبك بل وفي بعض البلدان الصغيرة حول دمشق مثل دوما والضمير. وبعضهم تولى نظارة الأوقاف على المساجد ودور القرآن والحديث وعلى الزوايا والخوانق والمدارس كما عُيِّنَ الكثيرون لخطابة الجوامع وللإمامة وعينوا شهودا لدى القضاة ومعيدين وفي الفقه بالمدارس والجامع وفي المشاركة (على المدارس) وتفارقة الرتبة (أجزاء القرآن في الجامع) وكتابة الغيبة (مراقبة غياب الطلبة) والنظر (على خزائن الكتب) ومشیخة الزوايا.. وما إليها.

(١٤٢) أنظر في تراجم التسعة الأوائل ابن رجب - ذيل الطبقات ٢/٢٩٤/٣٠٤/٣٢٢/٣٣٤/٣٥٨/٣٦٤/٤١٥/٤١٨/٤٥٣ بالترتيب أما الأخيران فأنظر في ترجمتهما القلائد ٢/٣٦٩ و ٢/٣٦٤.

(١٤٣) انظر في تراجم هؤلاء القضاة الباقيين ابن طولون - القلائد ٢/٣٦٩ فما بعد.

واذا بقى بعض المقادسة على مسافة معينة من الحكام ومن نظام الحكم فانما كان ذلك فقط في بعض رجال الأجيال الأولى ثم اندمج شيوخ الأسرة في النظام المملوكى الاندماج الكامل. بل نلمح أحيانا نوعا من المسايرة غير المبررة للحكام في بعض القصص المروية حتى عن كبارهم الأوائل كالذى ذكروه من أن أحد الشيوخ، أنكر على أبى عمر أنه يخاطب للملك العادل وهو ظالم «فانسحب من الجامع لأنه ماتحل خلفه صلاة» وقد برّر أبو عمر ذلك بحديث مروى عن النبى (ص) يقول: «ولدت زمن الملك العادل كسرى» (١٤٤). ونسمع غمزا على الحافظ جمال الدين عبدالله بن عبدالغنى «بالميل الى السلاطين والانقطاع الى الملك الصالح» وأصحاب الغمز قطبان من أقطاب الخنايلة هما الناجح ابن الحنبلى وسبط ابن الجوزى (١٤٥).. وقد ظهر في شيوخ الأجيال التالية بعض القضاة غير المحمودين من الناس مثل شرف الدين أحمد بن الحسن حفيد أبى عمر المتوفى سنة ٧٧١ والذي «باشر القضاء مباشرة لم يحمده عليها وكان عنده مداراة وحب للمنتصب» «ولافرح به صديقه بل شمت به عدوه» (١٤٦) ومثله تقى الدين سليمان ابن حمزة المتوفى سنة ٧١٥ فقد ذكر الذهبى أنه «يجرى في أحكامه ما الله به أعلم والآفة من سبطه (ابن بنته) ولولا دخوله القضاء لعد من العلماء العاملين..» (١٤٧).

(١٦) تكاثرت أعداد آل قدامة في الصالحية جيلا بعد جيل وأحفاداً بعد أحفاد حتى صاروا مع القرون مجموعة واسعة من الأسر المميزة شكلت جانباً من الارستقراطية الدينية - الاجتماعية فيها. وقد برزت منهم أولا «بيوت لها ذكر. مثل بيت أولاد الحافظ (عبدالغنى) وأولاد العماد وأولاد الشيخ أبى عمر ثم تفرعوا فكان منهم العديد من الأسر ويذكر ابن كنان قائمة طويلة بها في المروج السندسية ومنها: بيت عز الدين، وبيت ناصر الدين، وبيت ابن

(١٤٤) ابن رجب - ذيل الطبقات ٥٧/٢.

(١٤٥) ابن رجب - ذيل الطبقات ١٨٥/٢.

(١٤٦) القلائد ٣٦٢/٢.

(١٤٧) ابن رجب - ذيل الطبقات ٣٦٥/٢.

زريق وبيت القاضي سليمان وبيت ابن قاضي الجبل، وبيت شرف الدين، وبيت جمال الدين وبيت ابن مفلح، وبيت بنى عبدالمهادى وبيت المكتبى وبيت المبرد.. وبيت القاضي جمال الدين وبيت ابن المحب وبيت الحافظ ابن عبدالغنى» وغيرها (١٤٧) مكرر.

(١٧) انقطع المقادسة عن التألق الواضح منذ أوائل القرن التاسع تقريبا وبينما كثرت أعدادهم أحفاداً بعد أحفاد كانت تراجعهم في الكتب تقصر وعطاؤهم في الدراسة والتأليف يقل وأوقافهم تتضاءل. ولما كانت المهن والوظائف قد أضحت في تلك العصور وراثية في الأسر كان المقادسة المتأخرون في معظمهم يرثون المناصب الدينية ارثاً وتقليداً ولا ينالونها نيلاً. وكانت تعطى لتاريخهم وليس لمواهبهم وأصبحوا يتزاحون كالأخرين ومع الآخرين على الأوقاف والتدريس والامامة والاعادة والقضاء والفتوى ذلك الزحام الديني العادى الذي كان يقوم به صغار أمراء الجند على الاقطاع في ذلك العصر. وأخذ يحل في تراجعهم لدى المؤلفين لقب قاضى القضاة أو القاضى أو المحدث (١٤٨) بدلا من «العالم الزاهد» «وقطب الوقت» «والمسند الكبير» و«أمير المؤمنين في الحديث». وكان آخر الأسماء البارزة في الأسرة اسمان: واحد من أحفاد عمر بن أبى عمر هو محمد بن أبى بكر بن عبدالرحمن الصالحى الذي عرف بابن زريق (١٤٩) وهو من المحدثين الذين اشتغلوا بتاريخ رواة الحديث وقد توفى سنة ١٤٩٧/٩٠٠ أما الاسم الآخر والأهم فهو من فرع عبدالمهادى في الأسرة وهو المؤرخ المكثّر جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبدالمهادى. ويعرف بابن المبرد. وكان فيه من ملامح الجيل الأول البعد عن الدنيا والشدة في الدين وكره المناصب والانصراف للعلم والتأليف (١٥٠) وكان موسوعى الفكر تنوعت مؤلفاته

(١٤٧) مكرر ابن كنان المروج ص ٦١

(١٤٨) أنظر حلة لقب قاضى القضاة مثلاً لدى ابن رجب

٤٥٣/٤١٨/٤١٥/٣٦٤/٣٥٨/٣٢٢/٣٠٤/٢٩٤/٢

(١٤٩) شذرات ٣٦٦/٧ السخاوي - الضوء اللامع ج ٧ ص ١٦٩.

(١٥٠) شذرات ٤٣/٨ وانظر مقدمة أسعد طلس لكتابه ثمار المقاصد.

في فنون شتى من بينها الطب أيضا فهو شديد الشبه في ذلك مع معاصره جلال الدين السيوطي. وفي فهرس كتبه المخطوط بيده ذكر حوالى ٦٠٠ كتاب ورسالة من تأليفه وكانت مكتبته تضم أكثر من خمسة آلاف كتاب، لكنه في هذا كله ابن نفسه أكثر مما هو ابن أسرته. ولأخيه أحمد شهاب الدين ذكر محدود ومؤلفات.. ولكن هؤلاء كانوا آخر العنقود..

أما ملامح ضعف الأسرة فكانت قد بدأت منذ أوائل القرن الثامن ونجد الأمثلة عليها في تراجم بعض رجالها من أمثال أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن راجح سبط الشيخ أبى عمر والمتوفى سنة ٧١٠ والذي ذكروا أنه «حصل له انحراف وساء مزاجه فكان يقف في الطرقات و ينشد أشياء مفيدة و يتكلم بجذ وهزل وله تلامذة في ذلك الحال ثم يثوب الى عقله ثم يعود لحالته وقيل: كان سبب ذلك أكل الحشيش..» (١٥١).

ويذكرون عن رجل من كبار الأسرة في القرن الثامن (جمال الدين أحمد بن الحسن حفيد أبى عمر المتوفى سنة ٧٧١ ابن شيخ الجبل) أنه سخر القضاء لأهوائه و «لم تحمد مباشرته.. وكان عنده مداراة وحب للمنصب» مع أنه كان قاضى القضاة وشيخ الحنابلة (١٥٢) كما يذكرون عن قاض آخر من الأسرة نفسها بين القرنين التاسع والعاشر (ابن التقي المتوفى سنة ٨٢٤) أنه «كان عاريا من العلم جدا ولسانه ثقيل جدا لا يكاد يفهم كلامه.. وقد تولى قضاء نابلس مدة طويلة ومعلوم القضاء هناك ضعيف جدا. وكان يطلب من النواب (نواب السلطان) وغيرهم.. وجاء الى دمشق وأقام بها.. بجامع (دنكن) وقيل انه كان ينتظر أن يحصل له منه شيء..» (١٥٣) ووصف القاضى ناصر الدين ابن زريق

(١٥١) ابن رجب ٤٦٧/٢.

(١٥٢) القلائد ٣٦١/٢ - ٣٦٢ وابن رجب ٣٦٥/٢.

(١٥٣) النعمي - الدارس ٧٧/٢.

من أواخر القرن التاسع بالفساد والخمول والعوائد الرديئة» (١٥٤).

وإذا عرفت الأسرة نوعا من اليقظة المتأخرة جدا بظهور الشيخ عبد الغنى النابلسي الصوفي المعروف فيما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر (١٠٥٠ - ١١٤٣ بدمشق) فقد كانت قبل ذلك قد اختنقت في جو الغيبات الصوفية وهيمنة رجال الطرق التي غلبت على الفكر الدينى والناس منذ القرن التاسع ثم سيطرت في العهد العثمانى بعده....

١٨ () توافقت حمود الجماعة المقدسية مع صعود وسيطرة التيار التصوفى على الأجواء الروحية والاقبال على الفرق الصوفية في العالم الاسلامى السننى كله. يستوى في ذلك الطبقات الشعبية وشيوخ العلم ورجال الحكم. بينما سرت القناعة بأن العلم منحة ربانية «لأهل الله». وحلت «المعارف اللدنية» التى توهم الناس وجودها لدى أقطاب التصوف، ومعظمهم لم يكن له من العلم الا الحظ الضئيل، محل المعرفة العميقة بالدين والدراسة الحقيقية للعلم. وآمن الناس بققدسية «المجاذيب» وال دراويش وقدراتهم الخارقة لأنهم أولياء بالخلقة والتكوين الرباني. وبينما كان ذلك يتم، كان تحول كامل يتم في مسيرة العلم بالصالحية مدينة العلم.

والواقع أن الصالحية لم تكن، بالطبع خارج هذه الأجواء لأنها جزء منها ومن بناها الاجتماعية - الفكرية ولعلنا نستطيع القول أيضا إن هذه الأجواء الزهدية التصوفية كانت قد نشأت، مع نشأة البلد الجديد ومع الحركة المقدسية نفسها. ولا نقصد أنها نشأت مع أبى عمر وأخيه وصهره فقط ولكنها نشأت أيضا مع الشيوخ «الربانيين» الذين ظهروا يومذاك حول الصالحية أيضا: من أمثال الشيخ جندل العجمى في قرية منين (خلف جبل الصالحية وقد توفي سنة ٦٧٥) والشيخ رسلان التركمانى الجعبرى الدمشقى الذي سكن قرب مسجد أبى

صالح (١٥٥) (وقد توفي سنة ٦٩٩) كما انتعشت هذه الأجواء في الصالحية نفسها مع ابن عربي الصوفي الكبير الذي نعرف (والمتوفى بها سنة ٦٣٨) ومع اليونيني وعروذك وابن قوام. وعاشت أيضا وأيضا في قلب المدرسة العمرية بالذات مع الزهاد الصالحين الذين كانوا يأوون إليها أمثال: الشيخ ربحان والشيخ صفى الدين وشمس الدين اللبيني وشهاب الدين المصري، وأمين الدين ابن الكركري (١٥٦) والشيخ خلف أحد الأبدال الذي كان يُرى، فيما يروون في عرفة كل سنة وإن لم يسافر إلى الحج.

وقد انتشرت في الصالحية ألوان الطرق الصوفية لكن أهمها كانت الطريقة الجيلانية فان قطبها الكبير عبد القادر الجيلاني (المتوفى سنة ٥٦١) الملقب بالباز الأشهب كان حنبليا. فما كادت تظهر هذه الطريقة سنة ٥٩٧/١٢٠٠ في بغداد حتى نقلها محمد البطائحي وتقى الدين اليونيني والبلعبيكي إلى الصالحية.

واجتذبت الطريقة جماهير الحنابلة تدريجيا ولا سيما حين زال تأثير العلماء المقادسة الأوائل وبقيت منهم أصداء الزهد وحكايا الكرامات حتى إذا كانت أواخر القرن الثامن استطاع أبو بكر بن داود الحنبلي (المتوفى سنة ٨٠٦) شيخ الطريقة وابنه عبد الرحمن (المتوفى سنة ٨٥٦) أن يؤسسا زاوية الداودية. وبالرغم من مقاومة شيوخ الحنابلة لعبد الله ومن الفتن التي وقعت بينه وبينهم فقد استطاع أن يجعل زاويته أعظم زوايا الصالحية وأكثرها نشاطا وغنى وأوقافا واتباعا مريدين! وقامت بجانب الجيلانية الطريقة الرفاعية بمجاهداتها الجسدية والجباوية والقلندرية والشيبانية وغيرها ولكل منها مواكبها الموسمية ذات الأولوية والطبول ولها الأتباع والمريدون ومجالس الأذكار. وتراجع الفكر العلمي الديني وتراجعت المدارس في الصالحية لحساب التيار التصوفي المنتشر.. وليس من المصادفة أن تتراجع المدارس بدل أن تزيد بينما تقام في القرن التاسع ومطلع العاشر ١٨ زاوية جديدة لأهل الطرق.

(١٥٥) أنظر تراجع الشيخين لدى شذرات الذهب ٤٨٨/٥ و ٤٢٨.

(١٥٦) القلائد ١٨٠/٢ وأنظر كذلك ١ ص ١٧٥.

وندخر في خلفيتنا الفكرية المؤشرات العالمية وتعقيداتها الاقتصادية السياسية التى عزلت منطقة الشرق العربى منذ مطلع القرن العاشر/ ١٥م، لنضيف اليها أنه مع شيوع الغيبة الصوفية من الايمان بالأولياء والكرامات الربانية والخوارق لأقطاب التصوف وسيطرة الطرق الصوفية بالعشرات على الممارسات الدينية في المشرق الاسلامى والمغرب على السواء، وفي المناطق الجديدة الاسلام من افريقية والهند وآسيا، فان الصالحية بسبب من تراثها القديم في المقدسات ومن سمعة رجالها المقدسة وغيرهم ومن الكرامات الدينية التى نالتها دمشق خلال الحروب الصليبية ومن بعدها، أخذت حرمة خاصة وصارت لها حتى في أخيلة المتدينين البعيدين عنها هالة من البركة والتقديس شاع معه الاعتقاد أنه «ان بقى في الدنيا أحد من الصالحين فهو بها». وقد نقلت اليها من حلب مثلاً سنة ٦٧٠ رفات ابن قوام المتوفى هناك سنة ٦٥٨ (١٥٧) وأقيمت له زاوية فيها وصار له المريدون والأتباع وبينما تكاثرت في الصالحية أمثاله من شيوخ الزهد والطرق. و «الدروشة» وتكاثرت الزوايا والأربطة معهم وتحولت اليهم الهبات والأوقاف كان الاعتقاد يتزايد بالمقابل، ومع فقد الشخصيات الدينية الكبرى، بأن «الأقطاب» أقطاب الأرض، الابدال المتصلين بالله، موجودون فيها ولكنهم يحتفظون بالسر الالهى لأنفسهم فهم في الظاهر من أضعف خلق الله وفي الباطن حملة الأسرار الربانية والمكاشفون..

وكان هذا في الواقع جزءاً من التصورات الغيبية التى سيطرت على الأجواء الدينية مع تطاول العصر المملوكى وتفاقم المآسى الطبقيّة وشرور النظم المسيطرة. كانت البنى الاقتصادية الاجتماعية، وما ينزل بالناس من البلوى والجوائح الاقتصادية، والصحية، والسياسية هى التى تتلمس مثل هذا التفسير لغياب القمم القيادية وانتشار الظلم والفساد والنكبات في الناس بغية اقامة التوازن الروحى والمادى في حياتهم العامة. واذا كنا نجد الأمثلة على ذلك في بروز أسماء

الكيلانى والرفاعي والبدوى في المشرق وأمثالهم في المغرب فان ما يهمننا هنا هو أن الناس بالنسبة للصالحية آمنوا - وحلهم الشيوخ أيضا على الايمان بأنها مقر بعض هؤلاء الأقطاب الذين لا تخلو منهم الأرض. وقد ذكر ابن عبد الهادى، أواخر القرن التاسع، قصة معبرة عن هذه الأجواء هى قصة ذلك الرجل الذي جاء من بلاد بعيدة مؤمناً أنه لم يبق في الدنيا أحد من الصالحين الا في الصالحية وفي مدرسة أبى عمر بالذات ولما لمس الشرور فيها يئس فلم يطعم بها رغيفا وبينما هو في الجامع الأموى ذات يوم ناداه شخص لا يعرفه باسمه واسم ابيه وأهله وأقبل يهزه من كتفه قائلاً: لا يامسكين! لو خلت من الصالحين لحسف بها. عندك منهم في الصالحية ستة وفي المدرسة ثلاثة وفي ضواحي الصالحية ثلاثة» وأغمى على الرجل فلما أفاق لم يجد لمن كلمه هذا الكلام أثراً.. (١٥٦).

ومما يرويه ابن طولون (وهو صالحى وقد توفى سنة ٩٥٣) قوله وكأنه يروى احدى الحقائق: «ولما قصدتها الدوادار أقبردي (في فتنه قامت بها ضد السلطان) بلغنا أنه وجماعته رأوا خيلاً من برزة الى الربوة قد انتشرت فخاف ورجع عن ذلك. فسألنا هل عندكم هذه الخيول كلها في الصالحية؟ ولا والله ما نعلم ولا فرساً واحدة صعدت ذلك اليوم وانما ظهر رجال مشاة. وبلغنا عن بعض جماعة أنه قال له: مانشير عليك بالمسير اليها فانها محمية بالصالحين فرجع عن ذلك..» (١٥٧).

وهكذا بعد أن غاب أمثال المقداسة الأوائل عن الصالحية جاء الاعتقاد العام ليحل محلهم الأقطاب غير الظاهرين وليشعل الأمل بأنهم موجودون.. ولكن تحت أستار الله! وأن صالحية «الصالحين» ماتزال مقر الصالحين! .

٦ — مدارس آل قدامة ورجال الأسرة :

قام الانجاز الذى قدمه المقداسة في الصالحية على المدرستين العمرية

(١٥٦) القلائد ١٨٠/٢ — ١٨١.

(١٥٧) انظر القلائد ٣٨٠/٢.

الكيلانى والرفاعي والبدوى في المشرق وأمثالهم في المغرب فان ما يهمننا هنا هو أن الناس بالنسبة للصالحية آمنوا - وحلهم الشيوخ أيضا على الايمان بأنها مقر بعض هؤلاء الأقطاب الذين لا تخلو منهم الأرض. وقد ذكر ابن عبد الهادى، أواخر القرن التاسع، قصة معبرة عن هذه الأجواء هى قصة ذلك الرجل الذي جاء من بلاد بعيدة مؤمناً أنه لم يبق في الدنيا أحد من الصالحين الا في الصالحية وفي مدرسة أبى عمر بالذات ولما لمس الشرور فيها يشق فلم يطعم بها رغيفا وبينما هو في الجامع الأموى ذات يوم ناداه شخص لا يعرفه باسمه واسم ابيه وأهله وأقبل يهزه من كتفه قائلاً: لا يامسكين! لو خلت من الصالحين لحسف بها. عندك منهم في الصالحية ستة وفي المدرسة ثلاثة وفي ضواحي الصالحية ثلاثة» وأغمى على الرجل فلما أفاق لم يجد لمن كلمه هذا الكلام أثراً.. (١٥٦).

ومما يرويه ابن طولون (وهو صالحى وقد توفى سنة ٩٥٣) قوله وكأنه يروى احدى الحقائق: «ولما قصدتها الدوادار أقبردي (في فتنه قامت بها ضد السلطان) بلغنا أنه وجماعته رأوا خيلاً من برزة الى الربوة قد انتشرت فخاف ورجع عن ذلك. فسألنا هل عندكم هذه الخيول كلها في الصالحية؟ ولا والله ما نعلم ولا فرساً واحدة صعدت ذلك اليوم وانما ظهر رجال مشاة. وبلغنا عن بعض جماعة أنه قال له: مانشير عليك بالمسير اليها فانها محمية بالصالحين فرجع عن ذلك..» (١٥٧).

وهكذا بعد أن غاب أمثال المقداسة الأوائل عن الصالحية جاء الاعتقاد العام ليحل محلهم الأقطاب غير الظاهرين وليشعل الأمل بأنهم موجودون.. ولكن تحت أستار الله! وأن صالحية «الصالحين» ماتزال مقر الصالحين! .

٦ — مدارس آل قدامة ورجال الأسرة :

قام الانجاز الذى قدمه المقداسة في الصالحية على المدرستين العمرية

(١٥٦) القلائد ١٨٠/٢ — ١٨١.

(١٥٧) انظر القلائد ٣٨٠/٢.

والضحيائية وعلى جهود مجموعة من العلماء. وبرغم ظهور ١٧ مدرسة في هذا البلد حتى أواخر أيام الأسرة القدامية أوائل القرن العاشر منها ست حنبليات فقد كانت هاتان المدرستان الحنبليتان في الطليعة سعة وأوقافاً وأثراً. وبرغم توافد الشيوخ من مختلف المذاهب إليها فقد كان المقدسة الحنبلة بصورة عامة هم الأكثر عدداً والأعمق صدقاً فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ونصف القرن.

أولاً - المدرسة العمرية :

هى المؤسسة التي قامت عليها نهضة المذهب الحنبلى في مابين القرنين السابع والعاشر ١٣ - ١٦ م وهى المدرسة الأم التي جمعت ووجهت جهود الشيوخ المقدسة والحنبلة في تلك الفترة كما أنها البناء النواة الذي قامت من حوله بلدة الصالحية. وكانت تسمى بالشيخية وبالعمرية نسبة الى الشيخ أبى عمر.

وصف ابن عبد الهادى أواخر القرن التاسع هذه المدرسة بأنها «عظيمة لم يكن في بلاد الاسلام أعظم منها...» (١٥٨) وربما كان في هذا الوصف بعض المبالغة ولكنه على أى حال يكشف عظمة صورتها لدى الناس في فترة نشاطها وازدهارها. وقوام هذه «العظمة» أربعة أمور: سعة البناء وغنى الأوقاف وكثرة الشيوخ والطلاب وضخامة المكتبة.

أ) البناء بدأ ببناء المدرسة، على يد أبى عمر على ضفتى نهري زيد بأن: «عقد الشيخ النهري ثم بنى المسجد وبنى عشرة خلاوى (غرف) للفقراء عقداً على هيئة البلاد (غط بناء العقود في فلسطين كالأقبية) ووضع تحتها المصنع للماء» (١٥٩). ولا تذكر المصادر متى كان هذا البناء ولعله تم بعد تحرير فلسطين سنة ٥٨٣ وبعده

(١٥٨) الدارس ١١١/٢.

(١٥٩) القلائد ١٦٩/٢.

عزم المقادسة على عدم العودة وعلى الاستقرار حيث يقيمون من الجبل. ثم زاد الناس في المدرسة دون شك خلال القرن السابع زيادات لم تسجل. ولعل أهم زيادة كانت بعد ذلك في أواسط القرن الثامن على يد جمال الدين المرداوى (٧٠٠ — ٧٦٩) فقد بنى بناء كاملا شرق المدرسة وأضافه إليها رغم معارضة أولاد الشيخ ثم زادها أبو الفرج عبدالرحمن الفرائضي أحد أحفاد أبي عمرو زادها الأمير يلبغا اليحيوى قبل أواسط القرن الثامن، ثم استمرت الزيادة فيها في القرن التالى فقد بنى الأمير محمد بن منجك، أحد أمراء دمشق توسعة لها في شرقيها ثم جاء شهاب الدين أحمد بن عبدالرزاق ابن زريق كاتب الديوان عنده... (١٦٠) فوسّعها «بمدرسة جديدة» كاملة حوالى سنة ٨٤٠ «جاءت في غاية الحسن» حتى أضحت العمرية في أواسط القرن التاسع مجمعا مدرسيا يحوى ٣٦٠ خلوة (غرفة) عدا المسجد والساحات والأواوين والممرات والمنصنع. وكانت الاضافة الأخيرة ساحة واسعة فيها بئر ماء ويدور بها خلاوى على ثلاث طبقات متصلة بالبناء القديم الذى كانت تقوم بعض خلاويه فوق سقف النهر. وكان فيه كذلك طبقات ثلاث من الغرف وصحن واسع وايوان. وكان الخنابلة يفخرون بأن لهم مدرسة طول البركة فيها مسيرة يوم لأن نهر يزيد الذى يمر بها طوله كذلك... (١٦١) وكان لكل جناح من الخلاوى فيها اسمه فهذا حارة المرادوة وذلك حارة البقاعيين (من أهل البقاع) وثالث حارة العميان!!

ولاشك أن التوسع المطرد في البناء يعكس: تزايد الطلاب المستمر فيها كما يعبر عن استمرار دورها الريادى وتضاعده حتى أواسط القرن التاسع على الأقل. ولايعنى هذا أنها كانت تقوم بدور علمى خلاق بقدر ما يعنى أنها كرسّت النظام الفكرى التقليدى الذى وضعه مؤسسوها الأولون.

وقد توقف التزايد البنائى في المدرسة منذ أواسط القرن التاسع. و يبدو

(١٦٠) انظر القلائد ج ١ ص ١٦٩ حتى ص ١٧١ وانظر الدارس ١٠٥/٢ وص ١٠٦.

(١٦١) نجد الوصف التفصيلي للمدرسة بشبابيكها وأروقعتها والخلاوي والخرائن بالتفصيل لدى القلائد

ج ١ ص ١٨١ — ١٨٣.

أنها بدأت في التراجع بعد ذلك ولاسيما بعد الاحتلال العثماني للبلاد سنة ٩٢٢ ودعّمه للمذهب الحنفي. وقد ذكر ابن طولون الذي عاش تلك الفترة انه «قد تعطل منها في أيامنا خلاوى كثيرة» (١٦٢) وكان ذلك ايذانا بالتقلص والانقراض وماتزال أطلال هذه المدرسة قائمة وتحفظ باسمها في الصالحية حتى اليوم .

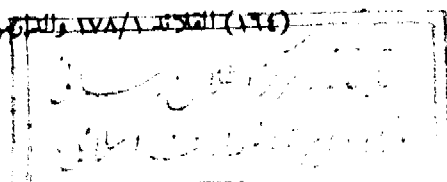
(ب) أوقاف المدرسة : كانت المدرسة نفسها اول وقف في هذه المؤسسة فقد وقفها صاحبها أبو عمر على تدريس القرآن والفقه للحنابلة. وقد بدأت الأوقاف تحبس عليها في حياته ثم لم يزل الناس يوقفون عليها من زمنه الى آخر عهدها و«قل سنة من السنين تمضي الا و يصير اليها فيها وقف. فوقها لا يمكن حصره كما يقول ابن عبد الهادي (١٦٣) حتى صار من كل أنواع البرها.. من جلته مثلا العشر من البقاع والمرتب على داريا من القمح ستون غرارة ومن الدراهم خمسة آلاف للغنم في شهر رمضان» قرر ذلك «السلطان الأشرف» (سيف الدين برسباي ٨٢٥ - ٨٤١) (١٦٤) ومنه دكاكين تحت قلعة دمشق «ونصف حمام الشبيبة والجنينة» والبيت فوقه.. الخ ونحن نجعل باقى الموارد الأخرى لأن المشرفين على الوقوف كان من عاداتهم اخفاء وثائقها أملا في اندثارها ذات يوم أو خوف الطمع فيها ولكنها نستطيع أن نعرف ضخامة هذه الموارد وقوتها الوقفية الطويلة من النفقات التي كانت تترتب على تلك الأوقاف والتي استمر بعضها قرنين أو أكثر أو أقل ومن المعروف أن لكل وقف مورده الخاص فكان للمدرسة العمرية:

— وقف للخبز يفرق فيها كل يوم ألف رغيف أو نحوه على النزلاء وليس ثم من المدارس ما يفرق فيها من الخبز أكثر منها وهو مستمر طول السنة وفيها الرغيف العادى (الطلمة) والرغيف الكبير (طلمة ونصف) يبدأ النازل الجديد بطلمة ثم برغيف كبير ثم بطلمتين وللشيخ ثلاثة! ولها أمين يفرق الخبز وكانت غيبة على

(١٦٢) القلائد ١/١٨٣.

(١٦٣) الدارس ٢/١١١.

(١٦٤) القلائد ١/١٨٨ والدارس ٢/١١١.



من لم يحضر».

— ولها وقف للأطعمة اليومية وهى أطعمة رتيبة ومنها الجريشة في الشتاء وقد تنوعت في أيام الشيخ عبدالرحمن بن داود (القرن التاسع) مابين قمحية وحب رمان ولبنية وغير ذلك ثم اقتصر على القمحية والعدس ليلة الجمعة ويطبخ لها في رمضان بلحم كل ليلة. ويطبخ لها ليلة العيد ثلاث أطعمة هريسة ورز حلو وطعام حامض. ولها أضحية في العيد الكبير تعطى لكل نازل بها. ولها وقف حلوى في المواسم (رجب وشعبان) ووقف زبيب وقضامة كل ليلة جمعة. وحلويات أخرى في الليالى الفضيلة من رمضان. ووقف لتوزيع الزبيب سنويا على النزلاء.

— ولها وقف على قمصان كل سنة لكل نازل (وكان مستمرا حتى أواسط القرن التاسع).

— ولها أوقاف سراويلات، وبشوت. وفراء لكل نازل سنويا.

— ولها حصر لبيوت المجاورين كل سنة وصابون .

— ولها وقف أطباق غسيل للفقراء ودسوت لطبخهم .

— ولها وقف أباريق للوضوء وسخانة يسخن فيها الماء في سائر أيام الشتاء والبرد للاغتسال. ووقف من الزيت للاضاءة .

— ولها وقف على ختان من لم يكن مختونا في كل سنة من الفقراء والأيتام وهو عام في سائر فقراء الصالحية... (١٦٥)

يضاف الى هذا كله مايدفع للشيخ من الأوقاف المحبوسة على دروسهم وقراءاتهم فهناك وقوف لمختلف أنواع القراءات والدروس والأعمال المتعلقة بامامة المدرسة والنظر في شؤونها..

و يظهر مقدار ماتدر هذه الوقوف من كثرة الشيخ المتفعين بها وتزاحمهم

في المرحلة الثانية خاصة من حياة المدرسة عليها.. وهذه الوقوف كانت تأتي خاصة من النواب والأمراء وكبار المتنفذين ومن التجار والملاكين والشيوخ الموسرين كما تأتي أحيانا من الأفراد العاديين. وإذا كان معظمهم من الحنابلة فان بعضهم - وبخاصة من الأمراء - كانوا يوقفون على المدرسة تدينا واعجابا أو لمآرب سياسية. على أن تدفق الأوقاف على المدرسة توقف منذ أواسط القرن التاسع على ما يظهر وقد ترافق معه وتلاه اضمحلال الأوقاف القديمة، تدريجيا وزوالها وكثيرا ما كان يبيعها أو يبتلعها المشرفون عليها (ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن بن زريق المتوفى سنة ٨٠٣) (مثلا باع بعض أوقافها) (١٦٦). وقد تدخل الحكام في النهاية في شؤون المدرسة بسبب اختلاف نظارها وشیوخها وفي مطالع العهد العثماني بعد سنة ١٩٢٢ اشتكى مستحقو المدرسة لنائب الشام جانبردى الغزالي فأقام عليها «شربداره»... وقد اضمحل حالها في أيامه وصار لا يجزئها الا في كل شهر مرتين أو ثلاثا وقد تهدم غالب خلاؤها والباقي لا يسكنها الا الأكالون من تكية السلطان سليم بن عثمان (يقصد الفقراء والمتسكعين) (١٦٧)».

ج (الدراسة والشیوخ :

كانت الدراسة في العمرية تشمل القرآن والفقه الحنبلي خاصة و يتابعها في المدرسة طلاب العلم من جميع مراحل الحياة :
 — فالأطفال، والمكفوفون لهم «شيخ التلقين» يلقنهم القرآن ومن عمل في ذلك محمد بن أحمد بن مرجان العالم القدوة (توفي سنة ٧٧٤) (١٦٨).
 — والكبار يتعلمون قراءة القرآن على عشرة من مشايخ الاقراء. واحد في الحرانة

(١٦٦) القلائد ١/١٧٩.

(١٦٧) القلائد ١/١٨١ وتكية السلطان سليم اقيمت بأمره تجاه جامع الشيخ محي الدين ابن عربي في الصالحية ومانزال قائمة الى اليوم و يطبخ فيها «شوربة» أسبوعية للفقراء.

(١٦٨) القلائد ١/١٧٧.

الشرقية وآخر في الحزاة الغربية (وفي الحزانتين مصاحف كثيرة موقوفة من أهل البر) وشيخ المدرسة يكون في المحراب. وعن يمينه وشماله شيخان آخران.. «وقد حفظ القرآن بها أمم لا يحصون (١٦٩)» ومن مشايخ الاقراء المشهورين الشيخ خلف الذي كان يعد من الأبدال ويقال انه كان يرى كل سنة بعرفة!

— وهناك قراءة السبع كل يوم بالايوان القبلى يجتمع فيه خلائق يحتمون القرآن فيه في كل أسبوع مرة، وهناك سبع بعد المغرب. وأسبوع أخرى بدأت ثم انقطعت. — وهناك قراءة الثلثين في المقصورة ولها شيخ مرتب يقرأ عليه كل من يقرأ فيها ولا تترك القراءة بها طول الليل..

— وكان بين بابى المدرسة شيخ يقرء القرآن والعلم على سائر المذاهب وعن يمينه وشماله مشايخ يساعدونه.

— وثمة دروس «منسوبة» (أى أنها باسم من بدأؤها أو وقفوا عليها) ومنها درس ابن الحبال ودرس ابن قاضى الجبل ودرس ابن البيطار ودرس الأمير بكتمر (المتوفى سنة ٧٢٤) ودرس حلقة يوم الثلاثاء التي كانت محصورة في عشرة أو عشرين طالبا يطلبون الفقه الحنبلى وينالون أوقاف الدرس على ذلك (وهو ريع نصف حمام الشبلية والبيت فوقه).

— وهناك البرنامج الأسبوعى للدروس في الفقه الحنبلى: ولكل يوم من أيام الأسبوع شيخه المختص (١٧٠).

يمكن أن نقدر عدد النازلين في المدرسة، حسب معدل توزيع الخبز بما لا يقل عن ٧٥٠ أو نحو ذلك. وحتى في أواخر عهدها، (أيام ابن طولون في أوائل العهد العثمانى) كان عدد النازلين لا يقل عن ٥٠٠ بين طالب وشيخ مقيم وصوفي زاهد (١٧١). وكان توزيع جلوس الشيوخ في المدرسة للتدريس يتبع مقام الشيخ

(١٦٩) القلائد ١/١٧٥ - ١٧٦.

(١٧٠) انظر في ذلك القلائد ١/١٧٣.

(١٧١) القلائد ١/١٧٨ يقول ابن طولون: «ولا يزال مُتَرَكِّل فيها الخمسمائة ونحو ذلك».

ومكانته فمنهم من «يتصدر» ومنهم من يجلس الى يمينه أو شماله أو في الزاوية الشرقية أو الغربية. وللمدرسة إمام له مقامه الدينى الكبير ولها ناظر (مدير) يتولى شؤونها (١٧٢). كما كان لها من الحرمه الشيء الكثير نتيجة لكل ذلك «بحيث انه اذا دخلها غريم لا يدخل أحد من ذوى الشوكه يأخذه ولو كان النائب (نائب السلطنة) واذا جاء في نهرها قتيل غسل ودفن من غير مشاورة...» (١٧٣).

وقد اضطرب أمر المدرسة في النصف الأول من القرن التاسع باختلاف شيوخ الحنابلة عليها وسيطرة الطريقة الكيلانية على جماهيرهم فتسلم ادارة المدرسة الشيخ عبدالرحمن بن داود شيخ الطريقة ونظمها التنظيم الطيب ولكنه أدخل عليها تدريس المذاهب الأربعة، بعد أن كان شيوخ المدرسة (من نسل أبى عمر) يشيرون ان سمعوا أحدا يهيم بمنازعتهم وحدانية المذهب فيها. «وشق ذلك على الجماعة.. ووقع بسبب ذلك أمور وفتن» (حاول الشهاب ابن عبدالرزاق بن زريق حسمها باستصدار مراسيم سلطانية من مصر باخراج أصحاب المذاهب الأخرى منها) «فلما كانت المراسيم في الطريق مات فاستمر الأمر على ذلك..» (١٧٤).

وهكذا رتب للشافعية درس في العمرية، عند البئر، يتناول صاحبه تسعين درهما في الشهر ثم رتب للحنفية درس في الايوان القبلى، في اليومين المذكورين (١٧٥). وكان ذلك سنة ٨٤٧.

وبذلك تحولت العمرية في أواسط القرن التاسع مدرسة لجميع المذاهب

(١٧٢) انظر في ذلك القلائد ١٧٧/١ و ١٧٩.

(١٧٣) القلائد وانظر كذلك ص ١٨٠ «أنا عندي خمسمائة حرامي».

(١٧٤) انظر في المصدر نفسه ١٧٤/١ ويعلق عبد الهادي الحنبلي على ذلك بقوله «كان أكثر أصحابنا (الحنابلة) يرون ذلك بلية وأما أنا لا يسؤني ذلك وأراه خيراً فان فضل الشيخ (أبي عمر) كان قاصراً على الحنابلة فتعدى اليهم والى غيرهم...».

(١٧٥) انظر المصدر السابق نفسه ١٧٤/١ — ١٧٥.

لكنها كانت اذ ذاك قد بدأت مرحلة الأقول.. كانت لها حرمة مستمدة من تاريخها وشيوخها وجلالة العلماء فيها وجدية طلاب العلم ولكن ذلك الجو القديم انتهى الى الانحطاط.. وأحد نظارها في مطالع القرن التاسع (ناصر الدين محمد ابن زريق) «نقل عنه في حقها - على حد قول ابن عبد الهادي أحد رجال الأسرة القدامية - كلمات رديئة وأمور كفرية منها: قصدى اضرارها واضرب على بابها دفا ومسمارا. وكان يقول للأتراك (الحكام والأمراء المماليك) أنا عندي خمسمائة حرامى.. الى غير ذلك حتى كرّرها الى الأتراك وغيرهم.. وتساعد هو وغيره حتى كبست وضرب أهلها بعد أن كانوا يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر على كل أحد وكانت لهم حرمة قائمة..» (فكسرت حرمتها وفضح أمرها وكان عضده في ذلك قاضى الخنابلة النجم ابن مفلح..» (١٧٦)...

د) مكتبة المدرسة :

يبدو من خلال الأخبار أنها كانت مكتبة ضخمة وقد نمت بما كان يهدى اليها اليها ويوقف فيها من مختلف الواقفين والكتب و يبدو أنها كانت موزعة على قاعتين الخزانة الشرقية والخزانة الغربية وفي هاتين الخزانتين عدا الكتب مصاحف كثيرة. يضاف الى هذا «عدة خزائن للكتب الموقوفة من عدة أناس»: يقول ابن طولون:

— «أعظمها كتب السيد الحسينى «ولعله شمس الدين محمد بن على بن الحسن بن حمزة الحسينى (٧١٥ - ٧٦٥) صاحب الذيل على كتاب العبر للذهبي وقد جمع أشياء مهمة في الحديث وكتب واختصر بخطه الكثير من الكتب (١٧٧).

(١٧٦) القلائد ١/ ١٨٠.

(١٧٧) انظر ترجمته لدى ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ولدى ابن حجر وفي ضوء اللامع ٦١/٤ وابن طولون الذى ذكر الخزانة لم يذكر اسمه وقد رجحنا أن يكون هو شمس الدين. وثمة احتمال آخر هو أن يكون المقصود هو أبا عبيد الله محمد بن الحسن بن عبد الله

— «ومنها كتب الشيخ قوام الدين الحنفى» (وهو قوام الدين بن قاسم العلائى الحنفى).

— «ومنها كتب الشمس البانياسى» (محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٢١) (١٧٨).

— «ومنها كتب المتحدث جمال الدين يوسف بن عبد الهادى (المعروف بابن المبرد المؤرخ المعروف ٨٤٠ — ٩٠٩ م) وهى تزيد على خمسة آلاف كتاب ورسالة فُهرسها بنفسه فى كتاب وقفها المحفوظ بخطه فى المكتبة الظاهرية بدمشق (١٧٩) و يبدو من استعراض الفهرس أنها كانت تحوى طائفة نفيسة من الكتب جيدة النسخ ومما كتب بخطوط العلماء المشهورين كالذهبى وابن قيم الجوزية وابن الجوزى وابن رجب والجراعى وغيرهم .

— ومنها كتب شهاب الدين بن منصور .

— «ومنها كتب صاحبنا البدرى (صاحب) ديوان الجيش «ولعله ابن أبى بكر بن عبدالله ابن البدرى الدمشقى المؤرخ المتوفى سنة ٨٩٤) و يضيف ابن طولون فى النهاية: «وفى هذه الكتب مصحف بخط الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه» (١٨٠) وقد أصيبت هذه المكتبة بنكبتين الأولى أيام قازان آخر القرن السابع والثانية فى كارثة تيمور أوائل القرن التاسع ونهبت كتبها وبيعت ولكنها استطاعت بعد كل من النكبتين أن تستعيد تكوينها الا أنها مالبثت أن اضمحلّت مع اضمحلال المدرسة وتوزعت الأيدى كتبها التى بقى بعض منها محفوظا فيها حتى اجتمع فى مطالع هذا القرن بين كنوز المكتبة الظاهرية بدمشق.

— الحسينى الواسطى (٧١٧ — ٧٧٦) وقد اشتغل فى المدرسة الشامية الجوانية والبرانية وفى الصارمية وكتب الكثير نسخاً وتصنيفاً بخطه الحسن. (ترجمته فى الشذرات ٢٤٤/٦ ولدى ابن حجر فى الدرر ٤٢٠/٣ — ٤٢١ — وقد حسب صاحب الشذرات الشخصين شخصاً واحداً فكرر ترجمته الواسطى فى سنة ٧٦٥ ج ٦ ص ٢٠٥ — ٢٠٦) بدلا من ابن حمزة.

(١٧٨) له ترجمة صغيرة فى مختصر تنبيه الطالب للعلموى.

(١٧٩) رقمه فى الظاهرية (١٩) أدب وهو فى ١٥٠ صفحة (١٤×٢٠) مكتوب بخط دقيق متقارب

السطور ويحوى ٦٠٠ كتاب من تأليف ابن عبد الهادى.

(١٨٠) أنظر القلائد ١٨٣/١.

ثانيا : المدرسة الضيائية (دار الحديث الضيائية المحمدية)

وتسمى كذلك دار السنة. بناها وأوقفها ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدى المقدسى شرقى باب جامع الحنابلة (المظفرى) ولعل البناء كان قبل سنة ٦٢٠ بعد استقرار صاحبها في الصالحية وانتهاء اسفاره العديدة في طلب العلم وقد ذكروا أنه «بناها للمحدثين والغرباء الواردين مع الفقر والقلّة وكان يبني منها جانبا ويصبر الى أن يجمع معه ما يبنى به. و يعمل فيها بنفسه. ولم يقبل من أحد شيئا تورعا...» كما ذكروا أيضا أنه قد «أعانه عليها بعض أهل الخير...» (١٨٢).

وكانت المدرسة تحوى مسجدا وخلوة (قاعة) للكتب وصحناً فيه بئر ماء ومن حوله خلاوى سفلية وعلوية وكان لها بابان أحدهما قديم هو القبلى (الجنوبى) والآخر جديد (الغربى) أحدث في القرن الثامن، أحدثه ابن قاضى الجبل (المتوفى سنة ٧٧١) (١٨٣).

ولم تكن المدرسة واسعة كالعمرية لأنها كانت مقصورة على دراسة الحديث النبوى والفقه ويديرها «شيخ دار الحديث»، الذي يقوم بالتدريس فيها ومعه مدرس للفقه وبعض المعيدين. ولكن أوقافها كانت على ما يظهر أوقافا حسنة دارة: فهي تضم بين ماتضمه: غالب دكاكين السوق الفوقانى (في الصالحية) وحوانيت وجنينة في التيرب وأرضا بسقبا (أحدى قرى الغوطة) ويؤخذ لأهلها ثلث قمح ضياع وقف دار الحديث الأشرفية، (وهى دار أخرى للحديث بالصالحية على حافة يزيد بناها الملك الأشرف مظفر الدين المتوفى سنة ٦٣٥) وهى الدير والدوير والمنصورة والتليل والشبرقية...» (١٨٤) (من قرى الغوطة التى درست) ولعل أهم ما فى هذه المدرسة مكتبتها التى كانت تعرف بخلوة الكتب

(١٨١) أنظر القلائد ٨١/١ لم تذكر المصادر تاريخ البناء والدليل الوحيد الذي استرشدنا به هو أن الموقع عبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ وقف كتبه على هذه المدرسة.

(١٨٢) ابن رجب — ٢٣٨/٢.

(١٨٣) القلائد ٨٣/١ وما تزال بقية هذه المدرسة موجودة وهى الآن دار تدعى بالضلاعية وتستغل لمصلحة الجامع المظفرى ولم يبق من بنائها الاوّل سوى قوس ايوانها القديم.

(١٨٤) أنظر الدارس ٩٩/٢ والقلائد ٨٣/١.

والنواة الأولى للمكتبة صاحبها نفسه فقد أوقفها على الدار وكان مولعا بالكتب «حصل كثيرا من المسانيد والأجزاء وحصل أصولاً نفيسة فتح الله بها عليه هبة وشراء ونسخا.. وأكب على التصنيف والنسخ» «وكتب بخطه الكثير من الكتب الكبار وغيرها. ويقال انه كتب عن أزيد من خمسمائة شيخ وحصل أصولا كثيرة» وقد وقف كل ذلك «بخزانة المدرسة الضيائية على اصحابهم الخنابلة» (١٨٥).

- ثم توالى أوقاف الكتب على المدرسة فصار فيها كما يقول الصفدى:
- «من وقف الشيخ موفق الدين» (عبدالله بن أحمد القدامى المتوفى سنة ٦٢٠)
 - و«البهاء عبدالرحمن» (هو أبو محمد عبدالرحمن بن ابراهيم بن أحمد السعدى ابن عم الضياء صاحب المدرسة ٥٥٥ - ٦٣٤).
 - الحافظ عبد العزيز (ولعله عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان المقدسي المتوفى سنة ٦٣٤).
 - و«ابن الحاجب» (ولعله عثمان بن عمر بن أبي بكر الاسنائي ٥٧٠ — ٦٤٦) أو الغز عمر بن محمد بن منصور الاميني المحدث المتوفى سنة ٦٣٠).
 - و«ابن سلام» (ولعله الزكي المحدث محمد بن الحسن بن سالم الدمشقي المتوفى سنة ٦٣٠ وقد كتب الكثير وتوفى شابا فيا لحادية والعشرين أو الحسين بن اسحق المتوفى سنة ٧١٧).
 - و«ابن هامل» (وهو شمس الدين محمد بن عبد المنعم الحراني ٦٠٣ — ٦٧١).
 - و«الشيخ على الموصلى» (ولعله عماد الدين على بن يعقوب الموصلى المتوفى سنة ٦٨٢).
 - و«الحافظ عبدالغنى» (١٨٦) (وهو تقي الدين ابن عبدالواحد المتوفى سنة ٦٠٠).
 - و«قد نهبت المكتبة في نكبة الصالحية، نوبة قازان (سنة ٦٩٩) وراح

(١٨٥) انظر الصفدى — الوافي بالوفيات — ج ٤ ص ٦٥ — ٦٦ وابن رجب ٢٣٧/٢ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٣/١٦٩ — ١٧٠.

(١٨٦) القلائد ١/٨٢ ومن المحتمل أن يكون الموصلى المتوفى سنة ٦١٤ (انظر شذرات ٦٠/٥) وانظر في تراجم الباقيين شذرات ١٣٨/٥ و ١٤٠/١١٤/١٦٨/٢٣٤/٣٨١ وج ٦ ص ٤٤.

منها شيء كثير» يقول ابن كثير سنة ٦٩٩ «وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس (الأرمني) في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية.. وجاء أكثر الناس الى رباط الحنابلة - فاحتاطت به التتار.. ولما نكب قتلوا.. ونهبوا.. ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري (والمدرسة) الضيائية وخزانة ابن البرزوري (وهو أبو بكر منصور بن معتوق التاجر البغدادى المتوفى سنة ٦٩٤ وقد وقف كتبه على تربته بجبل الصالحية). وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية..» (١٨٧) «ثم تماثلت» (مكتبة المدرسة الضيائية) ورجعت الى عهدها الأول فأصابتها في نوبة تيمور سنة ٨٠٣ نكبة أخرى مماثلة، ضاعت أصداؤها في النكبة الأعظم التي شملت دمشق وجامعها الأموى ومع ذلك عادت المكتبة مرة أخرى لسهولة وقف الكتب ولكنها لم تعد لمجدها الأول على ما يظهر بل جاء يوم تبددت فيه ثروتها من الكتب دون نكبة والمؤرخ ابن عبد الهادى (المتوفى سنة ٩٠٩) يعطينا تقريراً عن بدء انهيارها في عهده قائلاً:

«...وكان بهذه المدرسة كتب الدنيا والأجزاء الحديثية (وكانت هذه الأجزاء من الكثرة بحيث سعى ابن طولون مرة مع الشيخ موسى الكنانى الحنبلى المشرف على خلوة الكتب في استعادة نحو الفى جزء منها كانت على ما يظهر قد عدت عليها بعض العوادي) وضيف ابن عبد الهادى قوله: «حتى يقال انه كان فيها خط للأئمة الأربعة وحتى يقال انه كان فيها التوراة والانجيل. وكانت مضبوطة أيام خزنتها بنو المحب (١٨٨) وبعدهم صارت الى القاضى ناصر الدين بن زريق الذي قال عنه أبو الفضل ابن حجر أنه ما رأى في بلاد الشام من يستحق اسم الحافظ غيره. وكان في أيام القاضى علاء الدين بن مغلى (١٨٩) فاحتاج

(١٨٧) ابن كثير ٨/١٤

(١٨٨) بنو المحب هم أولاد محب الدين عبد الله بن أحمد السعدي ونعرف منهم شمس الدين أبابكر محمد بن عبد الله المعروف بالمحب الصامت (٧١٣ - ٧٨٩) وشمس الدين محمد بن محمد السعدي (٧٥٥ - ٨٢٨) وتراجهم في الدرر والشذرات.
(١٨٩) هو القاضى أبو الحسن علي بن محمود بن أبي بكر بن مغلى الحنبلى الحافظ (ولد بحماة أو بسلمية سنة ٧٧١ وتوفى سنة ٨٢٨) (شذرات ٧/١٨٥).

القاضي علاء الدين الى كتاب الخلاف للقاضي أبي يعلى فقالوا له لا يوجد الا في الضيائية فأرسل لطلبه منه فجمعه في قفتين وأرسله له». «قالوا : فمن ثم انفرط أمرها وطمع الناس فيها. ثم لما جاء تمر (لنك) وذهب زاد انفرط حالها. فجاء ابن حجر وأخذ منها عدة أحمال. (وهو ابن حجر العسقلاني) . ثم جاء الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين فأخذ منها. «ثم جاء الحافظ قطب الدين الخيضرى فأخذ منها. «ثم ان القاضي ناصر الدين ابن زريق الثانى استوعب أحاسن مافيهها» (١٩٠).

وتابعت المكتبة اضمحلالها مع اضمحلال المدرسة خلال العهد العثماني وقد أخذت مخطوطاتها الباقية في اواسط القرن الماضي فضمت الى المدرسة العمرية التي كانت بدورها مضمحلة وتصرف النظار الجهلة بالكتب حتى جاء الشيخ طاهر الجزائري أواخر القرن الماضي فجمع بين ما جمع من مخطوطات الجوامع والمدارس في دمشق بقايا الثروة الخطية في المدرسة العمرية وأودعه في البناء الذى عرف فيما بعد بدار الكتب الظاهرية. وجانب هام من ثروة هذه الدار بالمخطوطات مايزال بخطوط المقدسة أو يحمل سماعاتهم أو وقفهم عدا ما في المكتبات العالمية منها.

ثالثا : المدارس الحنبلية الأخرى في الصالحية:

ما كان ممكنا أن تسطع المدرستان السابقتان دون أن تتركا في الحنبلة من الحماسة ماتنشأ معه مراكز علمية أخرى هامشية. والواقع أن جهود العلماء الحنبلة عامة والمقادة معهم لم تكن محصورة في هاتين المدرستين فقد ظهرت ثمة أربعة مراكز علمية أخرى على أطرافها: وان تكن أقل شأنًا وأضيق أوقافا وأثرا (١٩١).

(١٩٠) القلائد ٨٢/١.

(١٩١) لنلاحظ هنا ان مدينة دمشق عرفت عدا مدارس الصالحية هذه ست مدارس حنبلية اخرى هي: الجوزية والجاموسية والحنبلية والمنجائية والصدرية والمسمارية (راجع اخبارها لدى الدارس ٢ من ص ٢٩ الى ص ١٢٦).

أ — مدرسة الصاحبة وقد أقامتها شرقي الصاحلية سنة ٦٢٨ السيدة ربيعة خاتون بنت أيوب شقيقة صلاح الدين (توفيت سنة ٦٤٣ وقد نيفت على الثمانين) وأوقفتها على الحنابلة. ولم تكن الصاحبة حنبلية ولكنها قامت بذلك كرمي لصديقتها العالمة صاحبة المدرسة التالية. ومدرسة الصاحبة ماتزال الى اليوم قائمة وتحمل الاسم نفسه وتستخدم مدرسة رسمية وبنائها أكمل بناء حافظت الأيام عليه من مدراس الصاحلية. وكان من أوقافها غالب قرية جبة عسال والبستان الذي تحت المدرسة والطاحون المجاورة وغالب الحواكير المجاورة لها هناك (١٩٢).

ب — مدرسة العالمة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي (توفيت سنة ٦٥٣) (١٩٣) وقد تزوجها الملك الأشرف صاحب حمص وكانت شديدة الغنى. بنّت مدرستها في غرب الصاحلية تحت جامع الأفرم. وكان من أوقافها بعض بساتين الغوطة وغياضها.

ج — المدرسة الضيائية المحاسنية وهي الضيائية الثانية وأقفها صاحبها (١٩٥) محاسن بن عبد الملك بن نجا التنوخي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣ على من يكون أمير الحنابلة. وقد دثرت قبل القرن التاسع ...

د — المدرسة الشيرازية وكانت شرقي مدرسة الصاحبة. وقد دثرت بدورها قبل القرن التاسع أيضا لأن رجال العلم في أواخر هذا القرن لم يكونوا يعرفون عنها أو عن المحاسنية السابقة أى خبر (١٩٦)

رابعاً : شيوخ المقادسة :

مجموعة الشيوخ المقادسة الذين أطلعتهم الحركة العلمية الحنبلية لآل

(١٩٢) انظر الحديث عنها وعن مشايخها في القلائد ١ ص ١٥٦ فما بعد والدارس ٧٩/٢ فما بعد.

(١٩٣) أورد ابن كثير ترجمتها مع ربيعة خاتون سنة ٦٤٣ وانظر اخبار مدرسة العالمة في الدارس ١١٢/٢.

(١٩٤) بجانب موقع وزارة الخارجية اليوم بدمشق.

(١٩٥) انظر ترجمة لدى شذرات ٢٢٣/٥ وانظر حديث المدرسة لدى الدارس ٩٩/٢ والقلائد ١٦٤/١.

(١٩٦) انظر القلائد ج ١ ص ١٦٤ حيث يقول عن الاولى سألت شيخنا الجمال ابن الميرد عنها فقال

لا أعرفها ولعلها بالسفح وص ١٦٥ حيث يقول عن الشيرازية: «وقد دثرت ...».

قدامة والذين برزوا حتى ذكرتهم كتب التراجم يزيد في العدد على مائة وخمسة عشر شيخاً. منهم قرابة النصف من آل قدامة (أسرة أحمد وابنه أبي عمر) ولدينا منهم ٥٤ اسماً على الأقل. وحوالي الربع من بنى سرور بفرعهم الشامي والتابلسي (٢٦ اسماً) بالإضافة الى ١٤ اسماً من آل عبدالهادي و١٢ اسماً من آل عبد الواحد والباقي من أسرتي راجح والمرداوين. وتتضمن الاسماء بالطبع عدداً من النساء العالمات يزيد على العشر.

وقد وزعنا هؤلاء العلماء على أسرهم في أشجار النسب الملحقه بالبحث. وبالرغم من أن الحديث عن الكثير منهم قد ورد بشكل أو بآخر ضمن ماضى منه فقد يكون من تمامه أن نستعرض البارزين منهم بوصفهم بعض الامثلة. فهناك عدا الأربعة الاوائل: أبى عمر محمد بن أحمد، وتقى الدين عبدالغنى، والموفق عبدالله بن احمد والضياء محمد بن عبد الواحد:

• عماد الدين (شقيق الضياء) ابراهيم بن عبد الواحد السعدى المقدسى (٥٤٣ - ١١٤٩/٦١٤) درس في بغداد والموصل وحران بعد دمشق وبرع في علوم القرآن والحديث والنحو والفرائض. وذاعت عنه بعض الكرامات لزهده (١٩٧).

• شمس الدين محمد بن ابراهيم هواين السابق. (٦٠٣ - ١٢٠٦/٦٧٦). (١٢٧٧) وهو أول من ولى قضاء القضاة ومشیخة الشيوخ من الحنابلة في مصر. وقد دفن فيها (١٩٨).

• شمس الدين عبدالرحمن بن أبى عمر محمد القدامى (٥٩٧ - ١٢٠١/٦٨٢). (١٢٨٤) درس على شيوخ الشام وشارك في الجهاد وظل يحدث ستين سنة وصار قاضى القضاة فترة ثم اعتزل وكتب عدد من تلاميذه في سيرته وشيوخه (١٩٩).

• شرف الدين أحمد بن احمد عبيد الله بن الشيخ احمد (٦١٤ - ١٢١٧/٢٨٧). (١٢٨٨) سمع من الموفق عم أبيه وجده لأمه ومن عدد كبار المحدثين. عرف

(١٩٧) ترجمته في شذرات ٥/٥٧ وابن رجب ٩٣/٢ والصفدي - الوافي ج ٦ ص ٤٩

(١٩٨) ترجمة في شذرات ٥/٣٥٣ وابن رجب ٢/٢٩٤ وابن كثير ١٣/٢٧٧

(١٩٩) ترجمة في شذرات ٥/٣٧٦ وابن رجب ٢/٣٠٤ وابن كثير ١٣/٣٠٢

بالزهد والفقه وبمعرفة الفرائض والجبر والمقابلة (٢٠٠).

• فخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد السعدى المقدسى (٥٧٥ - ١١٧٩/٦٩٠ - ١٢٩١) وقد عرف بابن البخارى لأن أباه تفقه في بخارى وقد سمع الفخر بدمشق والقدس ومصر والاسكندرية وحمص وحلب وبغداد. حدث ستين سنة واشتهر حين أعانه طول عمره على أن يصبح مسند عصره كله وتوافد طالبو الحديث عليه من أنحاء الدنيا يطلبون علو الاسناد. وهو الذي قال فيه الذهبى أنه آخر من كان بينه وبين النبى (ص) ثمانية رجال ثقات (٢٠١) وقد خرج له عدد من الشيوخ مشيخته.

• عائشة بنت محمد الدين عيسى بن الموفق (٦١١ - ٦٩٧) المحدثه العابدة وقد روت عن جدها وابن راجح وعدد من الشيوخ وروى عنها عدد من كبار المحدثين (٢٠٢).

• تقى الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر القدامى (٦٢٨ - ١٢٣١/٧١٥ - ١٣١٥) سمع الشيوخ بدمشق ومصر وبغداد واصبهان حتى زاد شيوخه بالسمع والاجازة على ٧٠٠ شيخ وقد أفتى نيفا وخمسين سنة (٢٠٣).

• محب الدين ابو محمد عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن أحمد السعدى المقدسى (٦٨٢ - ١٢٨٣/٧٣٧ - ١٣٣٧) ويعرف بابن المحب سمع عن نحو ألف شيخ وأكثر الناس من الثناء على علمه وفضله (٢٠٤).

• شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد القدامى (٧٠٤ - ٧٤٤ / ١٣٠٤ - ١٣٤٣) وقد برع في فنون الحديث ومعرفة الرجال وكتب من المؤلفات ما يزيد على ٥٨ كتابا بعضها في سبع مجلدات وبعضها في مجلد رغم انه اختصر شابا في الأربعين (٢٠٥).

(٢٠٠) ترجمته في القلائد ٣٥٢/٢.

(٢٠١) انظر ترجمتها في شذرات ٤٣٨/٥.

(٢٠٢) ترجمتها في شذرات ٤٣٨/٥ والقلائد ٣١٠/١.

(٢٠٣) انظر شذرات ٣٥/٦، الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٤١.

(٢٠٤) انظر شذرات ١١٤/٦.

(٢٠٥) راجع شذرات ١٤١/٦ الدرر ج ٣ ص ٤٢٢.

* ست العرب بنت محمد بن فخر الدين علي بن أحمد (البخاري) بن عبد الواحد السعدي (توفيت سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥) وهى من المحدثات اللواتي أخذ عنهن كبار الحفاظ (٢٠٦).

* شرف الدين أحمد بن الحسن بن عبدالله بن أبى عمر (٦٩٣ - ٧٧١ / ١٢٩٤ - ١٣٦٩) حمل ألقاب جمال الاسلام، شيخ الحنابلة وقاضى القضاة وعرف بابن قاضى الجبل. قرأ على ابن تيمية وعلى عدد كبير من الأئمة. برع في الحديث والنحو واللغة والاصول والمنطق وحديث في مصر والشام ومع أنه لم يحمدا فى القضاء فقد كان من المبرزين في العلم وله عدد من المصنفات.

* صلاح الدين محمد بن أحمد بن ابراهيم بن عبدالله بن أبى عمر (٦٨٤ - ٧٨٠ / ١٢٨٥ - ١٣٧٨) أخذ الحديث عن عدد من كبار عصره في الحديث وعرف بالصلاح والصبر على السماع والاسماع وقد طال به العمر حتى أضحي مسند وقته ورحلة عصره وهو آخر من كان بينه وبين النبى (ص) تسعة رجال ثقات بالسماع المتصل ولذلك توارد طلاب الحديث من كل مكان فلما مات قالوا: نزل أهل الاسناد بموته درجة (٢٠٧).

* شمس الدين محمد بن المحب عبدالله بن أحمد بن المحب عبدالله بن أحمد بن محمد السعدي المقدسى (٧١٢ - ٧٨٩ / ١٣١٢ - ١٣٨٧) وقد اشتهر بالمحب الصامت رغم كرهه أن يدعى بذلك وهو حافظ كبير ومسند مكثر وزاهد من كبار الزهاد. سمع بدمشق ومكة والقدس ومصر وبغداد. وتفرد بأكثر مسموعاته وصنف في الحديث أعمالا كثيرة (٢٠٨).

* شمس الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر القدامى (٧٠٨ - ٧٩٤ / ١٣٠٩ - ١٣٩٢) وهو بدوره من المحدثين البارزين المكثرين (٢٠٩).

* ناصر الدين محمد بن محمد بن داوود بن حمزة القدامى (٧٠٨ - ٧٩٦ / ١٣٠٩ -

(٢٠٦) شذرات ٢٠٨/٦ الدرر ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢٠٧) انظر شذرات ٢٦٧/٦ والقلائد ٢٩٤/٢ الدرر ج ٣ ص ٣٩٢.

(٢٠٨) انظر شذرات ٣٠٩/٦ والقلائد ٣١٢/٢.

(٢٠٩) انظر القلائد ٢٩٥/٢.

(١٣٩٤) سمع في دمشق ومكة ومصر وحلب وتفرّد ببعض شيوخه
وسماعاته (٢١٠).

* شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن العز أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي
(٧٠٧ - ٧٩٨ / ١٣٠٨ - ١٣٩٦) ويشتهر بابن العز. سمع بمكة والقدس ومصر
وبغداد حتى كان العالم المفتى والمسنّد لمكثّر (٢١١).

* عمر بن محمد بن أحمد بن عبد الهادي (قتل في غزوة تيمور لدمشق سنة ٨٠٣)
بعد أن عمر طويلا وصار على الاسناد (٢١٢).

* عائشة بنت شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي (٧٢٣ - ٨١٦ / ١٣٢٣ -
١٤١٣) المحدثّة التي أضحت في آخر عمرها أسند أهل الأرض ورحلة الدنيا.
وأختها فاطمة كانت بدورها من المحدثات (توفيت سنة ٨٠٣ في غزوة
تيمور) (٢١٣).

* شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن حمزة (٠٠٠ -
٨٤١ / ١٤٣٧) وكان أفضى القضاة والمحدث العالم. اشتهر بابن ناصر الدين
كما اشتهر بابن زريق. وذهب بالطاعون الذي شمل الشام سنة وفاته ووصل
مصر (٢١٤).

* جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي (٨٤٠ - ٩٠٩ / ١٤٣٦ -
١٥٠٣) وهو من أشهر علماء هذه الأسر رغم تأخر عصره ومن أغزرهم انتاجا.
أخذ عن جلة شيوخ عصره وشيخاته وتلمذ عليه الكثيرون ومنهم أولاده ومنهم
ابن طولون الصالحى. قضى معظم حياته في المدرسة العمريّة ميسور الحال كارها
للمناصب وكانت خزانة كتبه تزيد على خمسة آلاف كتاب أما مؤلفاته فتزيد
على ٦٠٠ كتاب ورسالة وتكشف أنه من أواخر الموسوعيين في التاريخ

(٢١٠) انظر شذرات ٣٤٧/٦ والقلائد ٢/٢٩٧.

(٢١١) انظر شذرات ٣٥٣/٦ والقلائد ٢/٣٣٤.

(٢١٢) انظر شذرات ٣٣/٧ والقلائد ٢/٢٨٧ الضوء اللامع ج ٥ ص ١١٥.

(٢١٣) شذرات ١٢٠/٧ والقلائد ٢/٢٨٧ الضوء اللامع ٨١/١٢.

(٢١٤) شذرات ٢٤٠/٧ الضوء اللامع ٧٤/٢.

الاسلامى. وفي المكتبة الظاهرية الكثير من مخطوطاته بخطه وفيها كتب التوحيد والجدل والحديث والفقه والفتوى والتاريخ والتراجم واللغة والآداب والطب. وهو أول من وضع تاريخ الصالحية (٢١٥).
* ولا بد أخيراً من أن نضيف اثنين من المتأخرين في الأسرة القدامية المقدسية ولكنهما تفردا في عصرهما وكانا أشبه باليقظة في الأسرة:

١ — عبد الجليل بن محمد بن عبد الهادي العمري (دمشق ١٠٥٥ هـ - المدينة ١٠٨٧) وقد اشتهر بالفلك وله رسائل عديدة في هذا العلم منها: الربع الجامع في الفلك والربع المقنطر في الهندسة. وغيرها وكان في الوقت نفسه سالكا سبيل التصوف وتوفي وشيكا في الحج وهو ما يزال في عز الشباب (٢١٦).

٢ — عبد الغنى بن اسماعيل بن عبد الغنى بن اسماعيل بن أحمد الحنفى النقشبندى القادرى (ولد سنة ١٠٥٠ بدمشق وتوفي بها سنة ١١٤٣/١٦٤١ - ١٧٣١) وهو من كبار المتصوفة (على الطريقة الجيلانية) اشتهر عدا التصوف بالفقه والتفسير والأدب وله عدد من المؤلفات وقد زار جماعيل في رحلته المعروفة وكتب: «وقد زرنا في تلك القرية ديار أجدادنا بنى قدامة الذين هاجروا من تلك البلاد لما.. أخذ الكفار بيت المقدس» وقال :
بجماعين دار بنى قدامة سقى جنباتها صوب الغمامة
وهم بالصالحية من دمشق جدودى يعرفون بنى قدامة !
وعلى قبره اليوم، جامع يعرف باسمه في شرقى الصالحية ما يزال معمورا.

(٢١٥) شذرات ٤٣/٨.

(٢١٦) انظر ترجمة لدى المحبي — خلاصة الأثر ٣٠٠/٢.

٧) نحو من التلخيص والتقويم :

ما من شك في أن آل قدامة ومن ارتبط بهم من الأسر العلمية المقدسية قد تركوا في تاريخ القرون التي عاشوا، أثرهم الواضح العميق :

أ — فقد أسسوا مدينة علم، أقاموا لها بجهودهم وفاعلياتهم المستمرة مؤسساتها العلمية والاجتماعية كما منحوها مهمتها ودورها وموارد رزقها في تلك العصور واستجلبوا اليها كذلك جهود وفاعليات الآخرين فأدخلوها ضمن الخطوط نفسها التي رسموها وخلقوا في الصالحية مجتمعاً يعج بالحركة العلمية بجانب حركته الاقتصادية والعمرانية.

ب — أسهموا على طريقتهم وبمقدار جهودهم في اقامة الحصون الدفاعية الروحية في الشرق العربي الاسلامي ضد القوى المكتسحة له من الغرب (الصليبيين) ومن الشرق (المغول) وذلك بتكوين وتعميق الروح الدينية في الناس. وكان العلم أحد جوانب العملية الدفاعية التي اصطنعها الحكام والناس في الشرق الاسلامي للحفاظ على هويته الحضارية العربية الاسلامية .

ج — أسهموا على طريقتهم أيضاً في خدمة الفكر الديني الاسلامي، باعطاء طوقه التقليدي حيوية جديدة وأجيالا جديدة من العلماء والشيخ وقد انصب ذلك خاصة على علم الحديث. وكانت جمهرتهم تشكل جانبا من حملة رسالته .

د — قاموا بدور اساسي في اشاعة المذهب الحنبلي ونشره وفي بلورة الفقه الحنبلي وتنظيمه. وكان هذا المذهب مضيقا عليه، في بغداد خاصة لما كان يلاقي من النزاع والخصومة فأقاموا له في دمشق مركز اشاع جديد يقوم على أساس من التعاون مع المذاهب الأخرى. وبهذا الشكل أنقذوا المذهب عمليا من الاندثار وأعطوه نهضة جديدة لم تنشره في الشام فقط ولكنها مهدت لامتداده أيضا الى نجد والى ظهوره في ثوبه الجديد على يد محمد بن عبد الوهاب. واذا امتد تأثيرهم وتأثير مذهبهم الحنبلي في المدى الزمني عدة

قرون فقد امتد في المكان من الصالحية الى دمشق فصار لهم محراب في جامعها ودروس مستقرة، والى بلدان أخرى حولها مثل دومة والضمير وبعلبك والى قراهم في جماعيل والى نابلس والقدس ومصر والاسكندرية والى حران واربيل وبغداد.

هـ - شاركوا المشاركة الواضحة في زيادة التراث الفكري الاسلامي وفي حفظه بما ألفوا من مئات الكتب الهامة وبما كتبوا بخطوطهم وما حفظوه منها. وقد ألفوا في المجموع ما يصل الى ألف كتاب ورسالة، كما جمعت مكتباتهم وحفظت ألوف الكتب التراثية مما سمح ببقاء الكثير منها الى اليوم.

و - شاركوا بوضوح في عمليات التعليم والتربية حيثما وجدوا من البلدان والقرى وعلى امتداد القرون التي برزوا فيها. واذا كان النهج التعليمي - التربوي في تلك العصور دينيا كله فقد وهبوه في الواقع خير الأشر من أعمارهم وخير الجهود وعلموا الأطفال والكبار وكان لهم من الخير والمأثرة أنهم لم يعلموا المرأة فقط ولكن دفعوها أيضا الى التعلم حتى كان من نسائهم العالمات وحاملات ألقاب العلم.

ز - اسهموا في الحياة القضائية والادارية والدينية للعصرين الأيوبي والمملوكي بما تولوه من المناصب الرسمية والدينية وما قدموه من أبناء أسرهم العديدين لتلك المناصب وقامت نتيجة تقواهم وعلمهم، أحسن الصلات في الغالب بينهم وبين الطبقات الحاكمة (من جند وعلماء وتجار وملاكين) التي قدمت لهم بدورها أحسن الدعم والاحترام.

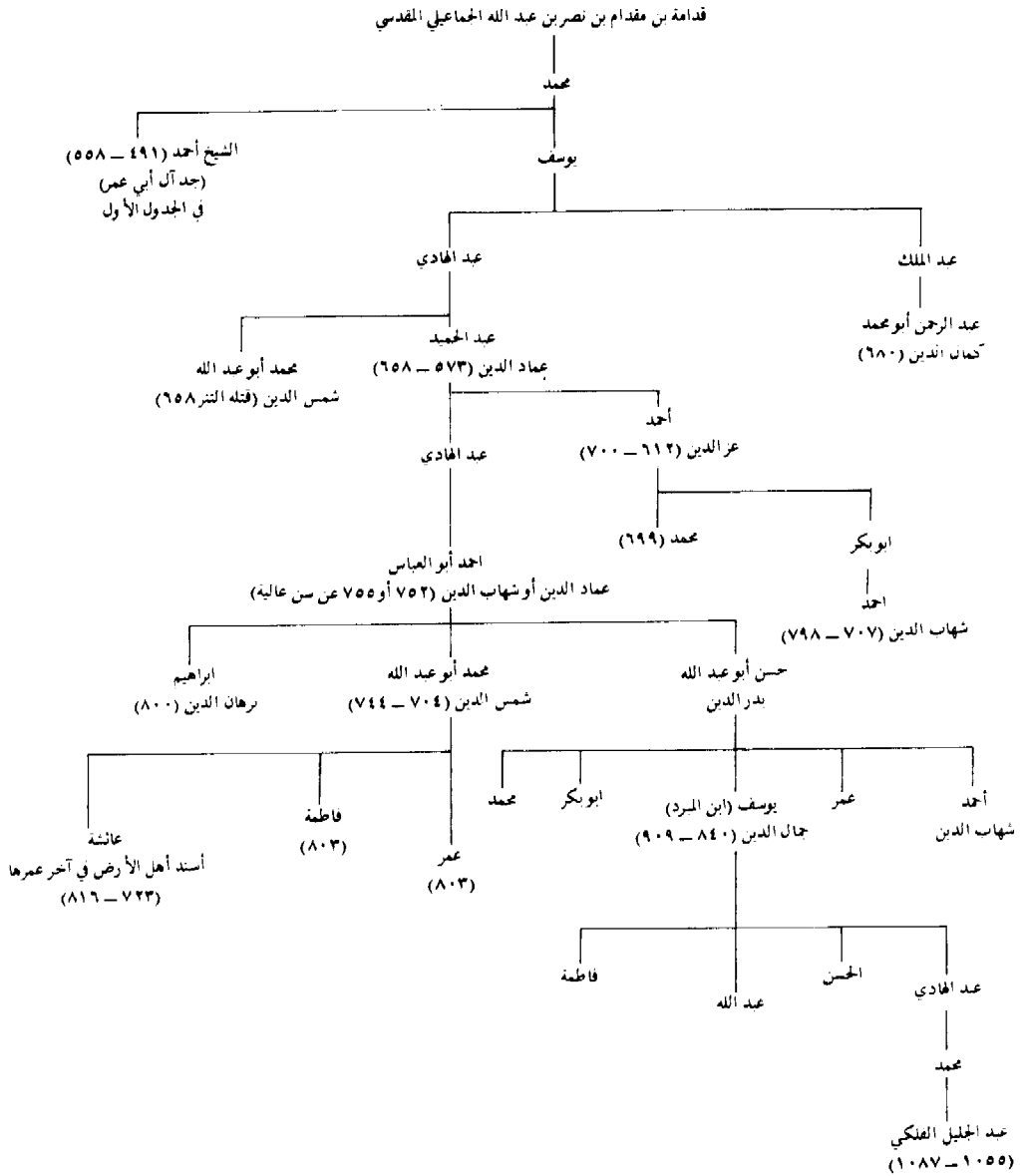
ح - وأخيرا فقد أسهم المقادسة، على مستوى السلوك الاجتماعي، في اشاعة النماذج المثلى لانسان العلم والتقوى بما عرف عنهم من الورع حتى البكاء ومن الزهد وكثرة العبادة ومن التعمق في الدين قرآنا وحديثا وفقها... وكانوا في الوقت نفسه أمثلة في الجمع بين العلم والعمل. وقد تمثل الاحترام الشديد لهذه النماذج في رعاية الحكام لهم ومنحهم المناصب الدينية والاقواف وفي مبالغة الناس في تكريمهم ومنحهم الهبات والوقوف، وفي الخروج بعشرات الألوف في جنازتهم وأخيرا في تصعيد ذلك كله لدرجة

ايصالهم مرتبة أصحاب الكرامات الربانية والأحوال والمعجزات! ولقد
عاون المقدسة في ذلك كله على توطيد وترسيخ البنى الاجتماعية –
الاقتصادية لتلك العصور وعلى اعطائها أشكالها التي استمرت حتى مطالع
هذا القرن الحالي.

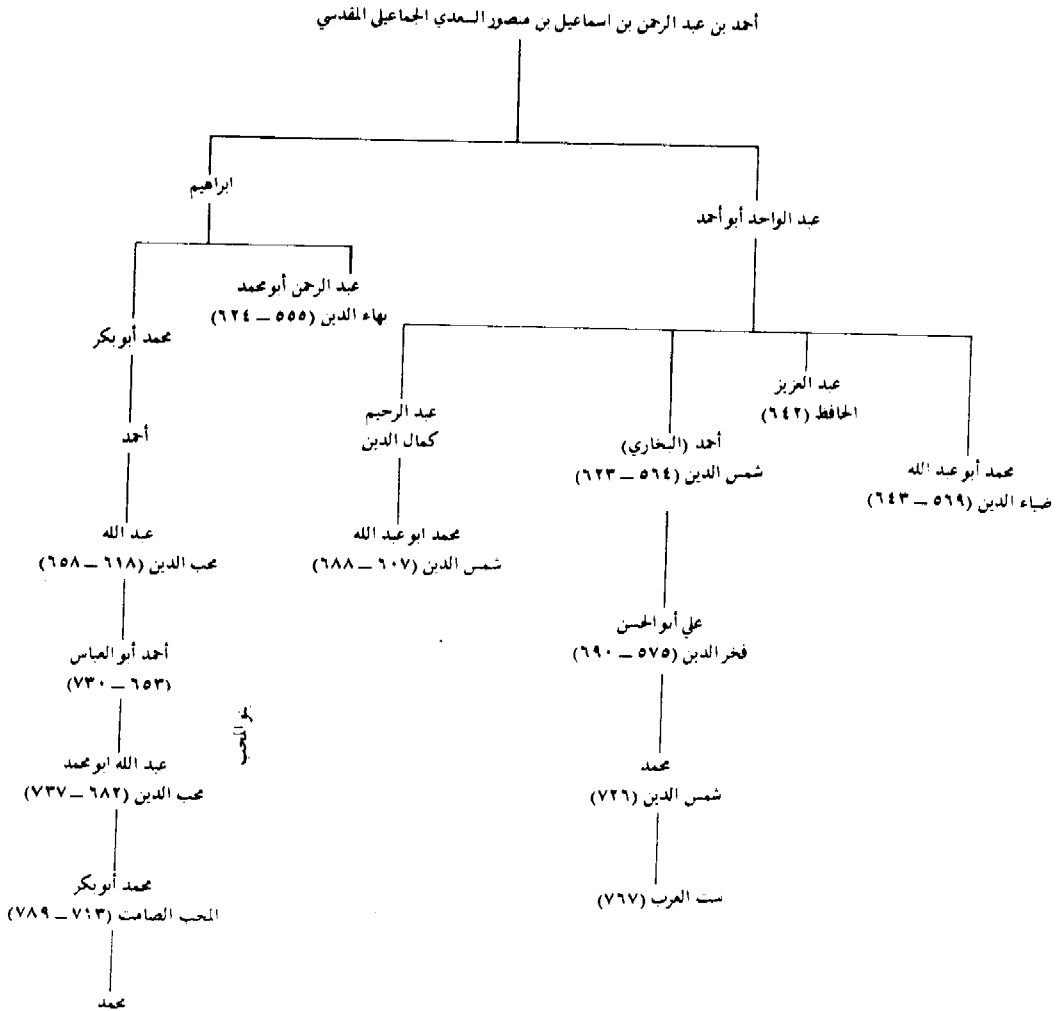
ولاشك أن مما ساعد آل قدامة على ذلك كله أنهم كانوا يمثلون عصورهم
وأن الجوالثقافي – الروحي مع توالي النكبات الصليبية والمغولية كان يتطلب هذا
النوع من النشاطات العلمية الاجتماعية ومن البنى الدفاعية فهم أبناء ذلك الجو
وهم صانعوه في وقت واحد. وعلى أي حال فقد كان هؤلاء المقدسة شيئاً هاماً في
تاريخ الشام، ومن خلاله في التاريخ الاسلامي. ولا نكاد نجد في تاريخ الشام
هجرة قروية استطاعت أن تترك مثل ذلك الأثر الضخم في السعة وفي الزمن وفي
العمق وفي النوع كذلك الأثر الذي تركته هجرة آل قدامة المقدسة الى دمشق .

الملاحق

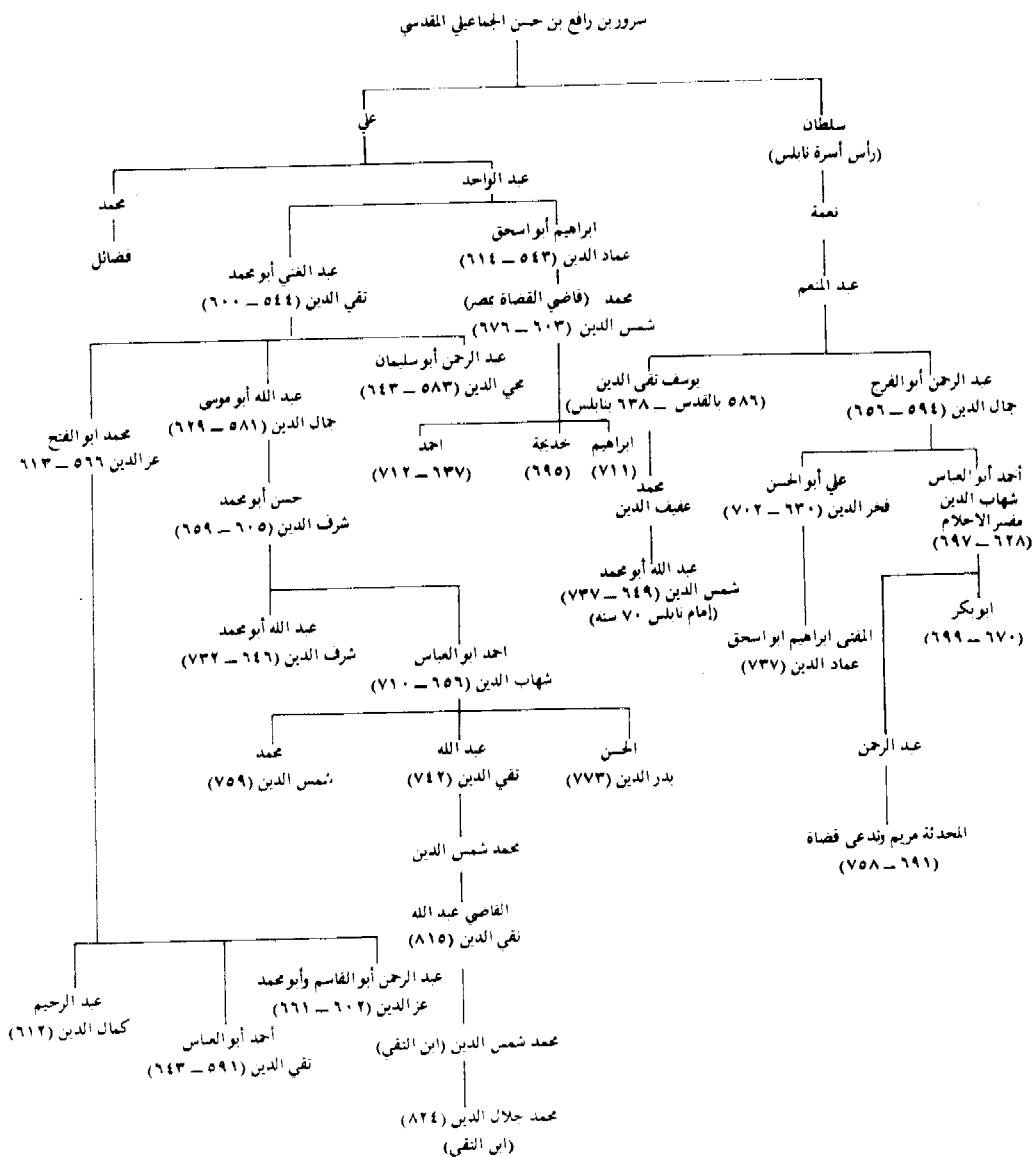
الجدول الثاني: آل عبد الهادي

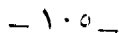


الجدول الثالث: آل عبد الواحد السعدي

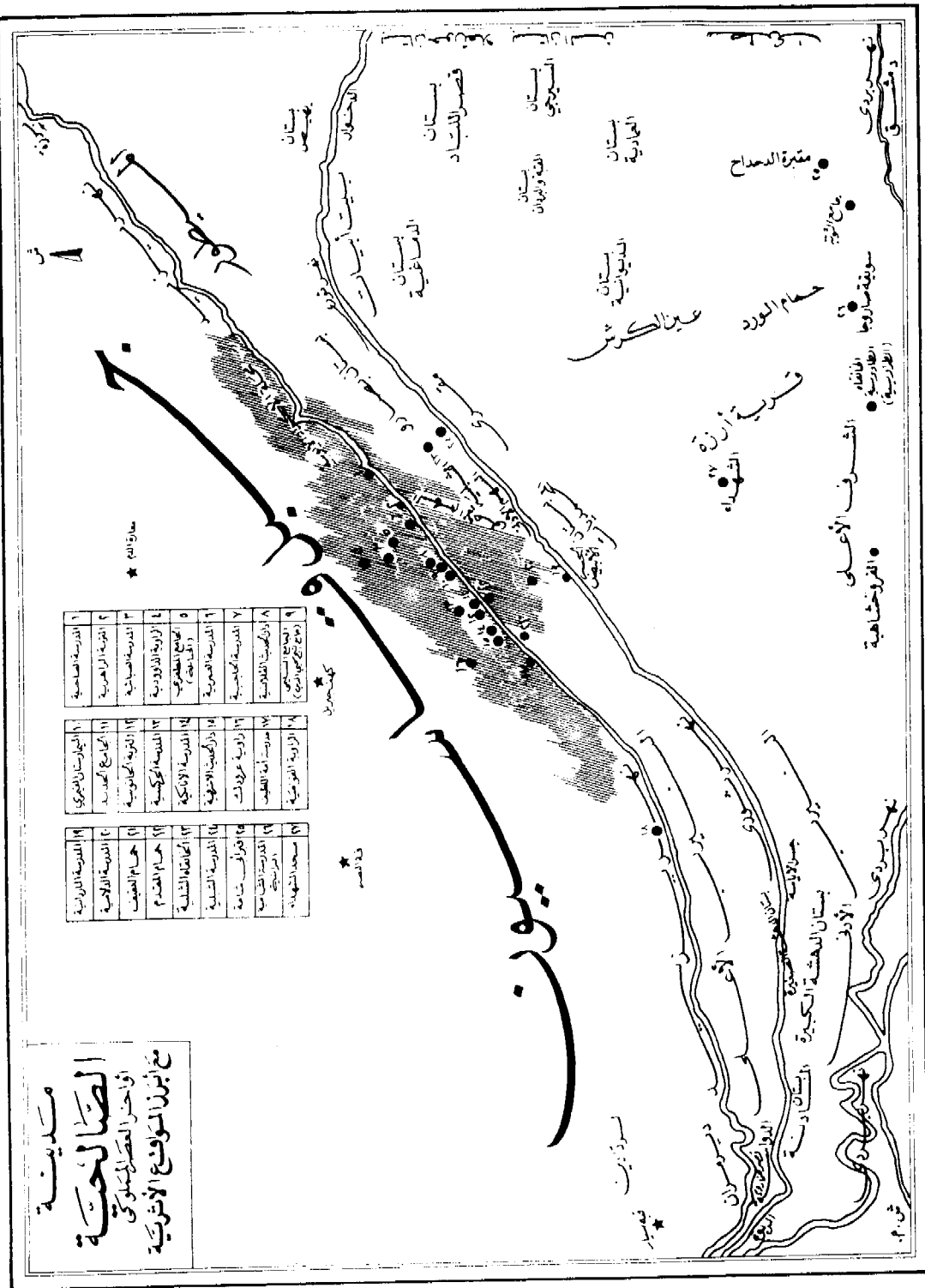


الجدول الرابع: آل سرور





مع أبرز المؤلفين الأثريّة
أواخر العصر السلماوى
الصلابة
مدينية

[illegible]

تنويه

الصور التالية المرفقة مع هذا البحث، هي مقدمة من الدكتور
إحسان صدقي العميد الذي يقدم له المؤلف أجل الشكر
الأخوي.

● منظر عام لموقع جماعين حالي والهضاب المدودة حولها ... فضاء دابلس



کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد و ایرة المعارف اسلامی

• دار بني قدامة لم يبق فيها سوى هذا القوس وقد طمرت من الداخل





• دارالقدامة - القدس الداخلي - خارج وقفه مع جدرانها

● اطلاع مصر اعى باب لىطابق علوى انذر ما تحته وما حوله. وبقى كانه بقايا قلعة قديمة



مصادر البحث:

أولا المراجع العربية

- (١) البدرى (ابوبكر بن عبد الله سنة ٨٩٤)
- نزهة الأنام في محاسن الشام (طبع مصر ١٣٤١)
- (٢) ابن بطوطة اللواتي (محمد بن ابراهيم سنة ٧٧٩ هـ)
الرحلة، بيروت، دار صادر ١٩٦٤
- (٣) ابن بلبان (على بن بلبان المقدسى المعظمى مطالع القرن الثامن)
أسنى المقاصد وأعذب الموارد (الجزء العاشر)
مخطوط دار الكتب الظاهرية رقم ٢٤٨ حديث ورقة ٣٩ وما بعدها).
- (٤) ابن تغري بردي (ابوالمحاسن يوسف بن عبد الله سنة ٨٧٤)
النجوم الزاهرة، القاهرة، (ط. دار الكتب - القاهرة) تصوير المؤسسة
المصرية سنة ١٩٦٣
- (٥) ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني سنة ٨٥٢)
الدرر الكامنة - (ط. حيدر أباد سنة ١٣٤٩) تصوير دار الجليل - بيروت
- (٦) ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد سنة ٦٨١ هـ)
وفيات الاعيان، (تحقيق احسان عباس) دار الشقافة - بيروت
سنة ١٩٦٨ - ١٩٧٢
- (٧) الذهبي (محمد بن عثمان سنة ٧٤٨)
تذكرة الحفاظ (تحقيق المعلمى)، دار احياء التراث العربى - حيدر أباد
- (٨) الدباغ (مصطفى مراد)
بلادنا فلسطين. ج ٢ قسم ٢ (نابلس) بيروت، دار الطليعة ١٩٧٠
- (٩) الربيعي (أبو الحسن على بن محمد سنة ٤٤٤)
فضائل الشام ودمشق (تحقيق المنجد) دمشق ١٩٥٠
- (١٠) ابن رجب (عبد الرحمن بن أحمد سنة ٧٩٥)
ذيل طبقات الحنابلة (تحقيق محمد حامد الفقي) القاهرة، مطبعة السنة
المحمدية، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣

- (١١) ابن زفر الأربلي (الحسن بن أحمد سنة ٧٢٦) مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها (تحقيق محمد أحمد دهمان) ط . دمشق ١٩٤٧
- (١٢) سبط ابن الجوزي (يوسف بن قز أوغلو سنة ٦٥٤) مرآة الزمان (الجزء الثامن) حيدر أباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٩٥١ .
- (١٣) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن سنة ٩٠٢) الضوء اللامع (ط . القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦) تصوير بيروت، دار مكتبة الحياة د. ت
- (١٤) ابن شاكر/الكتبي (محمد بن شاكر سنة ٧٦٤) فوات الوفيات، بيروت، دار صادر، د. ت
- (١٥) ابوشامة (عبد الرحمن بن اسماعيل سنة ٦٦٥) كتاب الروضتين — (ط . القاهرة — مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٨ هـ).
- (١٦) ابوشامة ذيل كتاب الروضتين (تحقيق الكوثري) تصوير بيروت دار الجليل ١٩٧٤
- (١٧) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي سنة ٦٨٤) الاعلاق الخطيرة (تحقيق سامي الدهان) قسم دمشق، ط . المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٦
- (١٨) ابن طولون (محمد بن علي الصالحى سنة ٩٥٣) القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية — تحقيق محمد أحمد دهمان ط . دمشق ١٩٤٩).
- (١٩) ابن عبد الهادي (جمال الدين يوسف بن حسن سنة ٩٠٩) ثمار المقاصد في ذكر المساجد (تحقيق أسعد طلس — طبع مكتبة لبنان سنة ١٩٧٤)

- (٢٠) ابن عبد الهادي
عدة الملومات في تعداد الحمامات — نشر صلاح الدين المنجد — مجلة
المشرق، العدد ٤١ لسنة ١٩٤٧ (ص ٤٠٩ — ٤٢٠)
- (٢١) ابن عساكر (علي بن الحسن سنة ٥٧١)
تاريخ مدينة دمشق (تحقيق المنجد ج ١ وقسم ١ ج ٢) ط . الجمع العلمي
بدمشق سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٤
- (٢٢) العلوي (عبد الباسط بن موسى سنة ٩٨١ هـ)
مختصر تنبيه الطالب (تحقيق المنجد) دمشق ١٩٤٧
- (٢٣) ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد سنة ١٠٩٨ هـ)
شذرات الذهب، بيروت، المكتب التجاري د . ت
- (٢٤) القلقشندي (أحمد بن علي سنة ٨٢١ هـ)
صبح الاعشى (ط . القاهرة، ١٩١٣ — ١٩٢٢) تصوير القاهرة ١٩٧٢
- (٢٥) ابن كثير (اسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤ هـ).
البداية والنهاية، بيروت، دار مكتبة المعارف ١٩٦٦.
- (٢٦) ابن كنان (محمد بن عيسى سنة ١١٥٣ هـ)
المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية. تحقيق محمد احمد
دهمان (ط . مديرية الآثار — دمشق ١٩٤٧).
- (٢٧) مجير الدين الحنبلي (عبد الرحمن بن محمد سنة ٩٢٨ هـ)
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (ط . عمان — بيروت سنة ١٩٧٣)
- (٢٨) المحبي الدمشقي (محمد أمين بن فضل الله سنة ١١١)
خلاصة الأثر (ط . القاهرة سنة ١٢٨٤ — تصوير بيروت).
- (٢٩) المقدسي (أحمد بن محمد سنة ٧٦٥)
مثير الغرام بفضائل القدس والشام — يافا ١٩٤٦
- (٣٠) النعيمي (عبد القادر بن محمد سنة ٩٢٧ هـ)
الدارس في تاريخ المدارس (تحقيق جعفر الحسني) ط . الجمع العلمي —
دمشق ١٩٤٨

- ٣١) الهروي (على بن أبي بكر سنة ٦١١)
الاشارات الى معرفة الزيارات. (نشر المعهد الفرنسي — تحقيق
جانين سورديل — تومين — ط. دمشق ١٩٥٣).
٣٢) اليافعى (عبد الله بن أسعد سنة ٧٦٨)
مرآة الجنان (ط. حيدر أباد سنة ١٣٣٧ هـ) تصوير بيروت سنة ١٩٧٠
٣٣) ياقوت الحموي (سنة ٦٢٦)
معجم البلدان، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٠٦ (تصوير بيروت).

ثانيا المراجع الاجنبية :

(مع ترجمته العربية بقلم البازالعريني)

- 1 - Eliséeff. N. «Damas» art. Enc. Is.
- 2 - Grousset R. H. des Criosades, Plon Paris 1934.
- 3 - Ruciman S. H. des croisades, Cambridge, university pres,
1968
- 4 - Sauvaget, J. «Damas» — سوفاجيه (ترجمة فؤاد أفرام البستاني).
(بيروت ١٩٣٦) بعنوان : (دمشق الشام لمحة تاريخية).